مي التلمساني

للجنة سور

يوميات

دار دَوِّن

للــجنـة ســـــــور

مي التلمساني: للـجنـة سـور، كتاب

طبعة دار دَوِّنْ الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٥٧١٨ /٢٠٢٣ - الترقيم الدولي: ٠ - ٣٧٩ - ٨٠٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـع والنَّشرِ محـْــفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادَة طباعةَ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الــواردة فـــي هــذا الكتـــاب
لا تُعبــر عــن رؤيــة الناشــر بالضـــرورة
وإنمــا تعبــر عــن رؤيــة الكـــاتب.

لوحة الغلاف إهداء من الفنان خالد حافظ

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

مي التلمساني

للـجنـة ســــــور

يوميات

فهرس الموضوعات

مِقعدٌ على التراس ٧
أكتوبر ١١
لاف ستوري ١٥
الحركة ٢١
تفاح وليمون ٢٧
العجائز ٣٧
أحباب الله.. والدولة ٤٣
جسم الإنسان ٤٩
الأعياد ٥٣
بوليتيكا ٥٩
يديش ٦٥
المدينة الزرقاء ٧١
سانت أرمان ٧٧
المستحيل ٨٥
مطارات ٩١
ابتسامة هتلر ٩٧
جنيف ١٠٣
إيجور ١٠٧
العودة ١١١
حقل البطاطس ١٢٣
مايوه غير شرعي ١٢٩
سيدات مصر الجديدة ١٣٥
مشاهد من قاعة التدريس ١٤١
الهجرة ١٤٩
بنات الأفكار ١٥٩
حلم ولّا علم ١٦٣
يا نسيم الحب لما... ١٦٧
بارانويا ١٧١

وَيًّا الطيور! ١٨١
طرق ١٨٥

مِقعدٌ على التراس

جلستُ أشرب كوبًا من البرتقال الغازيّ، أورنجينّا، وفنجانًا من القهوة على مَقهًى في شارع سان جيرمان دي بريه في باريس. يسمَّى هذا الركن من المقهى التراس؛ لأنه يقع في الخارج تحت المظلَّة. إذا كان الجو مشمسًا، لا تجد مكانًا شاغرًا هُنا. كنت آمُلُ هذا الصباح أن أزور مُتحف «دورسيه» حيث تُعرَض هذه الأيام مقتنيات «أمبرواز فولار»، أحد أهم قومسيرات الفن الحديث في بدايات القرن العشرين، لكني عزفتُ عن الدخول عندما وجدت الطابور أمام المُتحف هائلاً. على لوحة صغيرة مثبَّتة إلى حامل عند منتصف الطابور يمكنك أن تقرأ: «نصف ساعة انتظار»، بما يعني أن أمام القادم الجديد مثلي نحو ساعة كاملة من الوقوف تحت شمس آتون. إنه أغسطس الساخن بحرّه وزحامه وباريس مليئة بالسائحين وكاميرات التصوير وباعَةِ الفطائر الكريب والشحّاذين والمتسكِّعين. هبطتُ السلالم المؤديةَ إلى ساحة المتحف وأنا أتفرج على رسامي اللوحات السياحية الرخيصة التي يُقبِل على شرائها الأمريكان واليابانيون. اليوم أمامي طويلٌ، ومُتحف مكتظٌّ بالناس لا يُغري أحدًا على الفرجة. اتجهت صَوْبَ شارع سان جيرمان غير نادمة على ضياع الفرصة، فباريس نفسها متحف مفتوح.

ما إن تصل إلى شارع سان جيرمان حتى تشعر أن سحر القرن الثامن عشر قد حطَّ عليك، كأن فولتير وديدرو سيخرجان عن صمتهما ويقرآن عليك سورًا من قاموس التنوير. كان مارسيل بروست يقضي نصف وقته هنا ساعيًا وراء دعوة تُغدقها عليه سيدة من سيدات المجتمع الراقي، موضوع كتابته الدائم. وكان سارتر يجتمع هنا بحَوَاريّيه، على مقهًى «دو ماجو». أجلس باسترخاء على تيراس مقهى، أقرأ روايةً قديمة للكاتب البرتغالي خوسيه سراماجو. عنوان الرواية «كتاب التصوير والخط»، لكني لست متأكدة من أن هذا هو العنوان نفسه باللغة الأصلية. رسام بورتريه بالأجرة يرسم للأغنياء صورهم مقابِل المال، يَشْرعُ فجأة في رسم بورتريه آخر موازٍ لأحد العملاء يضع فيه خلاصة فنه لكنه يخفيه كأنها جريمة فنية. في الوقت نفسه يشرع في كتابة يومياته ويحكي فيها عن زياراته لمدن إيطالية شهيرة وعن إعادة اكتشاف تاريخ الفن كالعمارة والتصوير من خلال جولاته في تلك المدن. تخالطه في تلك الأثناء أوهام التحوُّل إلى الكتابة الأدبية وترك مهنة الرسم، ويَحلُم بنشر رحلاته التي يمكن فعليًّا فصلها عن الرواية واعتبارها مقالات نقدية في الفن. كانت صديقة البطل قد عزمت على تركه وأرسلت إليه رسالة يقرؤها الآن، وأنا معه، تقول فيها إنَّها لم تَعُد تحبه ولا تريد أن تشرح أسبابَ ذلك، فالمسألة بسيطة ولا تستحق الأسى، وكان البطل يشعر بالامتنان؛ لأن صديقته اتخذت القرار وحدها وجنَّبته عَناء المحاولة؛ محاولة التخلص منها ومحاولة استردادها.

فتاة لا تتعدَّى العشرين تنحني أمامي مبتسمة وتوجِّه إلى فمي مِيكروفونًا وتبدأ في الثرثرة. أُدرك

بعد لحظات أنها تعمل في إذاعة البي بي سي وتريد أن تسألني عن انطباعاتي عما طرأ على شارع سان جيرمان من تغيرات في السنوات الأخيرة. الفتاة بالطبع لا تعرفني ولا تعرف على الأرجح سراماجو الذي أطلّ من صفحة الكتاب المفتوح مستاءً؛ لأنني توقفت عن قراءة فصل الرسالة. ثم زال استياؤه عندما رأى دقَّة ملامح الفتاة وجسدها المَمْشوق الذي لا يخلو من استدارات شهية. أغلقت الكتاب على وجه الكاتب المتلصِّص.

- هل يمكنكِ الرد بالإنجليزية يا سيدتي؟

- نعم، يمكنني ذلك.

أطلَّت الفرحة من عينيها؛ وكنت أعرف أن الفرنسيين (إلا فيما ندر) لا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة أو يتحدثونها بلَكْنةٍ قوية تجعل من الصعب على المستمع أن يفهم حرفًا مما يُقال. أجبتُ أسئلتها قائلة: إني أزور باريس بانتظام منذ عام ١٩٨٨ وإني لاحظت على مدار السنوات العشرين الماضية تزايد الوجود الأمريكي بشكل لافت سواء في المطاعم والمقاهي أو في محلّات الملابس الجاهزة. سلسلة مقاهي ستارباكس مثلًا تغزو باريس الآن بدعوى تقديم قهوة كوزموبوليتانية. فكرت أن المليونير الصهيوني هوارد شولتز صاحب سلسلة المقاهي يفتخر على صفحات الجرائد أنه أحد ممولي الجيش الإسرائيلي تساحال، وأن العرب يقاطعون هذا المقهى في العالم كله، لكني لم أقل ذلك ورحت أُعدِّد أسماء المحلات والماركات الأمريكية التي باتت منتشرة في قلب باريس. أكَّدتِ الفتاة بشيء من التبرُّم أن الأمريكان يغزون الشارع فعلًا وأن عددًا من المكتبات بيعت مؤخرًا لمستثمرين أمريكيين لتتحول إلى مقاهٍ أمريكية أو محلات لبيع الجينز. أجبتُها أن سُمعة باريس السياحية تعتمد على الطهي والموضة، فلو افترضنا أنهما سيصبحان مع الوقت منتجات أمريكية فلا شك أن باريس ستفقد بذلك أحد عوامل الجذب المهمة للسائحين. أمّنت الفتاة على قولي ومضت سعيدة بالحوار الذي أكَّد هواجسها.

أكملتُ قراءة الفصل وذهني مشتَّت، اختفى سراماجو مؤقتًا ظنًّا منه -والظن في محله- أنني سأعود لقراءة فصل الرسالة بتركيز أكبر فيما بعد. فكرت أنني لا أعرف حق المعرفة ما التغيرات الجسيمة التي طرأت على سان جيرمان، أعرف فقط أن الوجود الأمريكي يطغَى شيئًا فشيئًا، وهي مسألة واضحة يدركها الكثيرون في أوروبا، ولكن ماذا بعدُ؟ تركت على المائدة ثمانية يوروات ثمن الأورنجينا والقهوة، ورحت أتجول في المِنطقة وأسجِّل في ذاكرتي ملامح الشارع. ربما استطعت يومًا أن أكتب عن طُرُز العمارة كما كتب عنها سراماجو، أو أن أجيب عن سؤال التحول بشكل أفضل إذا ما فاجأني ميكروفون البي بي سي مرة ثانية. بين الطموحين هوة قاسية. المعرفة تقف على الحافة بين الثقل والخِفَّة، بين العمق والسطح، بين سراماجو والبي بي سي، والناس جميعًا يطمحون إليها بدرجات متفاوتة من التصميم أو التهاون.

أكتوبر

يبدأ رأس السنة في أكتوبر. في هذا الشهر، وكلما ازدادت الأشجار عُزلة، أشعرُ أن نهاية السنة قد اقتربت، فالخريف في ذاته تمهيد لنهاية العام. وموت الأشجار أو بياتها الشتوي في شمال الأرض يبدأ في هذا الشهر. أكتوبر هو أيضًا موعد فتح الملَفَّات النائمة ودفع الحسابات المؤجَّلة. إذا كان الإنسان متفائلًا بطبعه مثلي فهو يشعر أن الخريف فصل الاستعداد لبدايات جديدة صاعدة واعدة (الإنسان يحب أن يكذب على نفسه، أن يحايلها)، وبالتالي يصبح أكتوبر هو رأس السنة الحقيقي لهواة محاسبة النفس والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد، على اعتبار أن التخطيط نصف النجاح والتنفيذ نصفه الثاني (رغم أن الريح أحيانًا ما تأتي بما لا تشتهي السفن). تتدفق إلى ذهني كل الأعمال التي لم تتم في أثناء السنة وأشرع في وضع قائمة لإنجازها قبل نهاية العام وكأن إنجازها مرهون بشرط السرعة ولا يمكن تصور تأجيلها إلى يناير أو فبراير من العام التالي. في أكتوبر، أُحاسب نفسي حسابًا عسيرًا فيما يتعلق بعلاقاتي الاجتماعية، فأتصور مثلًا أن الأهل والأصدقاء لا شك عاتبون على صمتي. وفيما تتولى أمي مهمة السؤال عنهم باسمي، أتذكر الأصحاب الذين لم أحادثهم منذ فترة وأرفع سماعة الهاتف أو أفتح الكمبيوتر للسؤال عنهم وعن أخبارهم (الكلمة السحرية على الهاتف: إيه أخبارك؟!). الحقيقة لا أحب الكلام كثيرًا في التليفون على عكس كثير من النساء، وأشعُر كلما رنَّ الهاتف أو الموبايل أنني مهددة كأن الرنين المُلِحّ يجبرني على الرد في لحظة بعينها لا أكون مُستعدة فيها للكلام مع أحد أصلًا، لذلك أفضل الإيميل؛ لأنه مقتضب ومصمَّم خِصيصًا للمراسلات الممتدة في الزمن، تلك التي لا تثير عتابًا لو تم تأجيلها أيامًا.

هكذا، عندما يبدأ ديسمبر ويبدأ معه العد التنازلي لنهاية العام الميلادي، يبدو لي وكأننا احتفلنا برأس السنة منذ فترة، وكأن الاحتفال في ديسمبر مجرد تحصيل حاصل، فقد أعَدتُ ترتيب أوراقي في أكتوبر ونوفمبر، واتصلت بالأصحاب للسؤال والمعايدة (عادة لا يدركون الهدف من المكالمة)، وانتهيت من وضع تصور طموح جدًّا لتغيير حياتي وإصلاح ما فسد منها في السنة القادمة، أعرف مُسبقًا أني لن أنفذ نصفه. الاستعداد لرأس السنة في أكتوبر مثله مثل الاستعداد لرحلة سفر، بهجة السفر الفعلية تتحقق في المسافة الفاصلة بين قرار السفر وتنفيذه وليس عند إتمام الرحلة نفسها. وكأن الشيء الأكثر إثارة ليس بلوغ الهدف، بل الطريق إليه. على الرغم من أن لحظة بلوغ الهدف لحظة مهمة تعني التحقق والنجاح بأوسع المعاني، فإنَّها تبدو مثل استراحة المحارب المُنتصر، مجرد هدنة مؤقتة يبدأ بعدها القتال من جديد.

طبيعة الخريف في كندا، حيث أقيم منذ نحو عشر سنوات، تشجع على التخطيط والترتيب والاستعداد للشتاء القارس، ولكنها أيضًا تشجِّع على الاسترسال في الكسل. صباح الجمعة الماضي،

خرجت (وهو أمر نادرٌ) إلى حديقة البيت الخلفية التي تُطل على غابة ممتدة حتى سفح التل القريب. الحدائق هنا نوعان؛ أمام البيت وخلفه، وكلاهما بلا سِياجٍ مغلقٍ. كنت أشعر برقة وحزن الخريف يغطيان الأرض، ورأس السنة القريب يغمرني بأسئلة وجودية. يوم الجمعة هو يوم عمل بالنسبة للكنديين ويوم عُطلة بالنسبة لي، إلا أنني لم أكفّ عن العمل بوازع من ضميري الحي أو بقوة الدفع المعتادة للنشطاء بالوراثة مثلي. فاجأتني نفسي وقد قاربت الساعة الثانية بعد الظهر بفكرة أن اليوم يوم عطلة، على الأقل بالنسبة لمصرية مهاجرة تضبط ساعتها على توقيت القاهرة. صنعت كوبًا من الكاموميل الساخن وخرجت إلى الحديقة لا ألوي على شيء. يصفو ذهني مثل الماء الرائق حين يكون الجو صحوًا هكذا، وتكون الشمس مشرقة بلا لهب، وتكون الريح هادئة كالنسيم رغم لَمسَة بردٍ تدفعني لوضع إيشارب حول رقبتي. ما إن جلست في مواجهة التل وبدأت شرب كوب الكاموميل الساخن (يقال إن هذه الزهرة تساعد على الاسترخاء والنوم، وينصح الأطباء بأن يشربها الصغار قُبيل الذهاب إلى الفراش) حتى بحثت ولم أجد فكرة واحدة تراود عقلي وتلح عليه، كان ذهني مثل صفحة السماء الزرقاء، خاليًا إلا من بعض نُتَف السحاب الخفيفة الثابتة ودرجات الأزرق الفاتح والأبيض الشفاف تلفني في هدوء أعرف أنه مؤقت، وأتمنى أن يدوم حتى تأتي الأفكار لتطرد السكينة.

بقيت على تلك الحال زمنًا لا أعرف مداه حتى وصل إلى سمعي صوت خشخشة الأوراق الصفراء والبنّية وهي تسقط بين الأغصان، وفكرت أن صورة الخريف بأوراقه المتساقطة، التي نراها عادة وكأنها طبيعة صامتة، هي في الواقع مصحوبة بصوت قريب الشبه من صوت الأوراق الميتة تحت أقدام السائرين، لكنه مختلف بسبب فعل الطيران، فالأوراق لها حفيف وتُصدر خَشخَشة عند السقوط؛ بعضها يصل إلى الأرض والبعض الآخر يظل معلقًا بين الأغصان في انتظار دفع الريح. رشفة من كوب الكاموميل ونظرة نحو قِمم الأشجار المتمايلة وسمعي المرهف يلتقط أصواتًا أخرى تصدرها الغابة، من بينها صوت يشبه صوت الدُّب الذي قالت جارتي إنه يأتي في الليل للبحث بين صناديق القمامة عن بقايا فطيرة التفاح (تمامًا كما كنا نقرأ في ميكي ونحن صغار)، وللتفتيش عن الأولاد الصغار الذين نسيتهم أمهاتهم في الحدائق ليلتهمهم. لم ألْتقِ بالدب حتى الآن، لكني دربت ابني الأصغر على الانسحاب البطيء نحو البيت لو جاء الدب يبحث عن فطائر. تلك الأصوات التي أسمعها الآن ألا تشبه صوت أقدام الدب؟ صفقت بيدي مرتين كما نصحتني جارتي، فالدب لا يحب المواجهة ويفضِّل الانسحاب إلا لو أثار غيظه أحد. عندما انتبهت إلى أن كوب الكاموميل لم يَعُد ساخنًا عدت إلى الداخل بخُطًى بطيئةٍ، فيما تعلق أكتوبر بذيلي مثل دب أليف وراح يذكِّرني بما تبقَّى من جدول الأعمال.

لاف ستوري

تراكم الثلج في الخارج بارتفاع ستين سنتيمترًا. لم تكفّ السماء عن ضخِّ الماء على البيوت والطرقات والتلال منذ يومين. ولأن درجة الحرارة تقل عن الصفر بنحو خمس عشرة درجة، يهبط الثلج على هيئة نُدَفٍ بيضاء رقيقة تتراكم بعناد وفي أقل من ساعات، على كل شيء؛ السيارات، أسطح المباني، حواف النوافذ، الأشجار، الطريق. في بعض الأحيان، عندما تشرق الشمس بعد العاصفة، يتجمد السطح المغطى بالثلج ويلمع تحت أشعة الشمس عاكسًا درجات من الأبيض الرمادي والسماوي، وتهبط درجة الحرارة أكثر وأكثر؛ لأن السحب لم تعُد تحمي الأرض من الريح الباردة. شمس رائعة وسماء خالية من الغيوم وبرد لا يطاق. وأحيانًا أخرى تتراكم السحب وتغيب الشمس طِيلة النهار فترتفع درجة الحرارة فوق الصفر بقليل ويبدأ الثلج في الذوبان ويتحول الطريق إلى بركة من الماء البارد وكُتل الثلج العائمة، وتغطي الأرصفةَ الأوحالُ الناتجةُ عن التلوث وارتفاع درجة الحرارة.

ليست مدن الثلج بالرومانسية التي نتخيلها. تصورنا العاطفي عن الثلج لا علاقة له بحالة الثلج في المدن، ولكن بالثلوج التي تغطي قمم الجبال والتي تبقى نظيفة ناصعة متوهجة. كنت أتخيل قبل الهجرة إلى كندا أن الثلج، مثلما رأيته في فيلم «لاف ستوري» أو «قصة حب» بطولة آلي ماكجرو وريان أونيل، مصدر بهجة. مشهد الحبيبين وهما يلهوان في الشتاء ويصنعان بجسدهما «ملاك الثلج» (يستلقي الواحد على ظهره فوق الثلج ويفتح ذراعيه ويباعد بين ساقيه في حركة نصف دائرية بحيث يخلف وراءه حُفرة كبيرة تشبه ملاكًا له جناحان وثوبه مُسدل إلى الأرض)، هذا المشهد محفور في ذاكرة الناس بوصفه واحدًا من أجمل المشاهد الرومانسية في سينما السبعينيات. اليوم أستطيع أن أتخيل فرحة الحبيبين بشكل ذهني، لكني لا أفهمها، ربما لأن الثلج الأمريكي مختلف عن الثلج الكندي. في النهاية، لا أعرف كيف ولماذا يرتبط الحب والثلج في السينما بعضهما ببعض، فبياض الثلج وطهارة الحب كليشيه سخيف في رأيي، لكني أعرف أن الثلج باعتباره مصدر سعادة مسألة فيها قولان، خصوصًا بالنسبة للمهاجرين من الجنوب أمثالي. فخلف باب البيت، في الحياة العادية، الأمر مختلف قليلًا.

توقفت العاصفة التي استمرت منذ يومين وأشرقت الشمس فجأة فوجدتني بقوة الدفع الذاتية ودون تفكير أرتدي المِعْطف وأخرج. عِدَّة الشغل جاهزة بالقرب من الباب لمواجهة أقسى العواصف؛ كاسحات ثلج يدوية بأحجام مختلفة، مقشة ثلاثة أضعاف المقشة البيتية، فرشة خاصة لإزالة الثلج عن السيارة، دَلْو يمتلئ مِلحًا ورملًا لزوم الثلج المتجمد الذي يشبه «المراية»؛ لأنك لا تراه والزحلقة عليه تؤدي إلى كسور جسيمة؛ حذاء بوت مبطن بالفرو، عدد من الجونتيات والإيشاربات القديمة لزوم البهدلة. أقف عند مدخل البيت بمِعْطف هائل وجونتيات ضخمة مثل

جندي وحيد في صحراء الثلج الأبيض. لا وقت اليوم لعمل «ملاك»! المنظر العام لا يشجع أحدًا على الخروج للنزهة، لكن جاري العجوز خرج مضطرًّا لفسحة الكلب. الطريق منكمش ومتعرج مثل ثعبان ميت، وبعض الجيران هنا وهناك يجاهدون لرفع الثلج عن سياراتهم ودفعه إلى وسط الحديقة الأمامية للبيت. مدخل بيت الجيران نظيف وبراق كأن العاصفة مرت فوقه ولم تتوقف. تضايقني المقارنة بين بيتهم وبيتنا، فهم يعتنون دائمًا بكسح الثلج مرتين أو ثلاثة يوميًّا، ويتبارون في تشكيل أكوام متناسقة منه أمام البيت وحول الحديقة. أما المدخل المؤدي إلى بيتنا فيعاني دائمًا من خبطاتي العشوائية هنا وهناك، ومن تعرجات الأكوام الصغيرة والكبيرة التي تصنع في النهاية طريقًا ضيقة، فقط بما يسمح بالدخول والخروج بحرية. فكرت أن الشمس ستساعدني اليوم على صنع المعجزات وأنني سأقضي الساعة القادمة في إزالة الثلج وتنسيق الكتل بطريقة هندسية، وسيكون هذا العمل بديلًا للنشاط الرياضي الذي يلح الجميع هنا على أهميته للصحة العامة. ولأني لست من هواة الثلج ولا من هواة الرياضة، خَبَا حماسي شيئًا فشيئًا وانتهت محاولتي البائسة لمنافسة الجيران بعد ربع ساعة من العمل الشاق، فتركت المدخل على حاله وعُدت أدراجي إلى البيت (جندي وحيد ومهزوم) بعد أن مهدت ممرًّا للعبور إلى الطريق وألقيت عليه بعض الملح والرمل لإذابة الثلج المتبقي.

علاقتي بالثلج منذ عشر سنوات علاقة مبتورة، بقرار حاسم من جانبي وبتجاهل تام من جانب الثلج. لا أحب التزلج مثلًا رغم أن الناس نصحوني كثيرًا بالاستمتاع بالشتاء بدلًا من الشكوى منه، لكني أداوم على التبرُّم بشكل طقسي ولم يفلح فيلم «لاف ستوري» في تغيير ذلك. عندما تتجمد البحيرات الصغيرة وفروع الأنهار والقنوات الصناعية، وتختبر الحكومة مدى صلابة الجليد فتصرِّح بالتزحلق عليه، لا يخلو يوم عطلة من هوايات ورياضات الثلج التي يتبارى الناس في الاستمتاع بها. لكني أخاف من ممارسة تلك الرياضات بأنواعها، من التزحلق على الجليد إلى التزلج في الجبال، وعندما أصطحب الأولاد إلى تلك الساحات أكتفي دائمًا بالفرجة. على هامش رياضات الثلج هناك أنشطة أخرى موازية أداوم على حضورها؛ مثل مهرجان النحت على الجليد والعروض الراقصة للتزحلق على الجليد، وهي أنشطة شعبية تجتذب أعدادًا غفيرة من الناس، خصوصًا أن بعضها يكون مجانيًّا.

الكل ينتظر سقوط الثلج قبل أعياد الكريسماس ورأس السنة، الكل يؤكد أن الكريسماس لن يكون له معنًى بلا ثلج، كما لو أننا نقول: إن الربيع لن يكون له معنًى بلا خماسين! هذا العام، نال الناس من الثلج أكثر مما يتمنون. بداية من منتصف نوفمبر بدَأ سقوط الثلج بانتظام مريب، واكتست الأرض ثوبًا شفافًا أخذ يزداد سمكًا وثقلًا حتى أصبح معطفًا قطبيًّا. وتيقن الأطفال أن سانتا كلوز قادم لا محالة من القطب الشمالي محملًا بالهدايا، فالثلج يبشر بقدومه. وتيقنت أنا أن أفضل شهر للاحتفال برأس السنة هنا هو شهر أكتوبر، قبل موسم الصقيع.

الحركة

لا أتصور أن تكون الفلسفة منفصلة عن الحياة. فكرة الانفصال فكرة قديمة، مَقولةٌ دافع عنها كهنة الفكر عبر العصور حتى يبدو الفكر المجرد والمفاهيم المعقدة وكأنها ترف إنساني، تنفصل عن العادي واليومي والعارض وتحلِّق في ملكوت الفكر والتأمل والإلهام. تمامًا كما حاول الكهان الاحتفاظ بسر الكهانة باستخدام لغة معقدة لا يتحدثها الناس وإذا تحدثوها لا يفهمون مفرداتها؛ لذلك تستهويني كتابات الفيلسوف الفرنسي «جيل دولوز» لأنه لا يمارس مهنة الفكر والتأمل وكأنه «موظف أفكار» يعلو درجة أو درجات على الموظفين الآخرين، ولا يكتب بلغة يُستغلق فَهمها على الناس، ولا يفصل بين أمور الفكر وأمور الحياة، وهو فضلًا عن ذلك يساريُّ الهوى وإن كان بلا انتماء حزبي. يعتبر نفسه مبدعًا ويدافع عن هذا الإبداع بصفته كاتبًا وفنانًا وفيلسوفًا وعالمًا ومتمردًا وثائرًا، لا يحلُم ولا يكفُّ عن العمل.

قرأت مؤخرًا مقالًا لدولوز بعنوان: «الوسطاء» (ويمكن أيضًا ترجمتها «الشفعاء»)، أشار فيه إلى فكرة تهمني كثيرًا هي فكرة الحركة، وتحدث عن سبب كونها جوهرية للإنسان وللمجتمع. نشر المقال عام ١٩٨٥ ثم أعيد طبعه ضمن كتاب «محادثات» الذي يضم عددًا من حوارات دولوز ومقالاته الصحفية. فيما يلي ترجمة مُبسطة لفقرات من هذا المقال:

«سبب معاناة الفكر اليوم هو العودة إلى الأفكار المجردة تحت مسمى «المودرنزم»، العودة إلى مسألة الأصول وما شابه ذلك. فورًا، تُصاب التحليلات المهتمة بالحركات والاتجاهات بالجمودِ والتعطل. إنها مرحلة ضعف شديد، مرحلة تراجع وتخلُّف، رغم أن الفلسفة تصورت أنها انتهت من مسألة الجذور هذه، حين قالت إنه لم يَعُد مهمًّا البدء من نقطة والوصول إلى نقطة. فلقد أصبح السؤال هو: ما الذي يحدث «بين»؟ كما هو مطروح مثلًا في الحركات الفيزيائية.

على مستوى الرياضات والعادات، طال التغيير الحركات نفسها. لقد عشنا زمنًا معتمدين على مفهوم أن الحركة طاقة، لها نقطة تتكئ عليها أو تتبع منها. الجري مثلًا أو رمي القرص ما هو إلا جهد، مقاومة، اعتمادًا على نقطة أو أصل أو رافعة. غير أننا نرى اليوم أن الحركة لا يتم تعريفها فقط من خلال نقطة رفع أو دفع. كل الرياضات الجديدة مثل التزحلق على الماء والألواح الشراعية والطيران الشراعي هي نوع من الاندماج أو الاندراج في موجة سابقة الوجود. لم يعد هناك أصل للحركة باعتباره نقطة بدء، بل أصبحت هناك طرق للانخراط في مدار. كيف نصبح جزءًا من موجة كبيرة متحركة، من تيار هوائي صاعد، كيف «نصل بين» بدلًا من أن نكون أصلًا لجهد مبذول؟ ذلك هو السؤال.

ورغم ذلك، تعود الفلسفة إلى القيم الخالدة الأبدية، وإلى فكرة المثقف حامي القيم الخالدة. وهذا تحديدًا ما عابه «بندا» على «برجسون». قال: إن برجسون خان طبقته؛ طبقة الموظفين، عندما

حاول أن يتبين فكرة الحركة. واليوم تقوم فكرة حقوق الإنسان بوظيفة القيم الخالدة. الدفاع عن الحق ومفاهيم أخرى كثيرة يعرف الناس جميعًا أنها محض أفكار مجردة تقوم بوظيفة القيم الخالدة. باسم هذه الأفكار يتم إيقاف الفكر نفسه، وتتعطل كل التحليلات القائمة على مبدأ الحركة. إذا كانت عمليات القهر شديدة الفظاعة؛ فذلك لأنها تحول دون الحركة وليس لأنها تتطاول على القيم الراسخة الأبدية. ما إن تبدأ مرحلة جدب حتى تلجأ الفلسفة إلى التفكير «في...» إذا لم تبدع الفلسفة شيئًا بذاتها فماذا بوسعها غير اللجوء إلى التفكير «في...»؟ تفكِّر الفلسفة فيما هو أبدي أو تاريخي، لكنها لم تعد تستطيع أن تصنع حركة بنفسها».

تلك هي عبقرية دولوز التي لا يمكن تجاهلها. ببساطة، يقول: إن مبدأ الحركة سابق على مبدأ الثبات، وينفي أن تكون العلاقات بين الأشياء والناس علاقات جذور، أو أصول ومنابت، وأن يكون لكل شيء منشأ ينبع منه ومصب يتجه إليه. ويطبق ذلك على تاريخ الشعوب وعلى الأفكار والعقائد وبدرجات أخرى على تحليله للأدب والسينما. يضيف دولوز في استطرادٍ يسميه «استطراد سياسي»:

«كثير من الناس كانوا ينتظرون من النظام الاشتراكي خطابًا من نوع جديد؛ خطاب شديد القرب من الحركات الفعلية، قادر على استقطاب هذه الحركات وتشكيل تراكيب متوائمة معها. (...) اليمينيون في ظنِّي لا يعيشون في أوهام، وليسوا أكثر غباءً من الآخرين، لكن تقنيتهم الخاصة هي معارضة كل حركة. إما الدخول في خضم الحركة، وإما إيقافها. فيما يخص اليسار، يتطلب ذلك أسلوبًا جديدًا في الحوار. المسألة ليست مسألة إقناع، بل مسألة وضوح. أن يكون الإنسان واضحًا يعني ألا يكتفي بفرض «معطيات» الموقف وإنما يطرح المشكلة. يبرز للعيان أشياء لم يكن لها أن تظهر في ظروف أخرى (...) بعد طرح المشكلة لن يكون من الممكن أبدًا تجاهلها وسيتحتَّم على اليمين نفسه أن يغير خطابه. إذن، دور اليسار سواء كان في الحكم أو خارجه هو اكتشاف نوع المشكلة التي يسعى اليمين بكل وسيلة لإخفائها».

مسألة الحركة، وهي من المعضلات الفكرية التي لا يتسع المجال هنا لتحليلها، يربطها دولوز هنا بقضية اليسار وبضرورة تطويره ويقرنها بمهمة كشف التكنيكات اليمينية المراوغة التي تبدو ظاهريًّا مع التغيير والتطوير لكنها في جوهرها تحاول الحفاظ على ما هو قائم وثابت وأزلي، سواء كان هذا على مستوى الفكر الاجتماعي أو على مستوى الغيبيات. في مصر، يتشبَّث اليمين في الحكومة وفي المعارضة بوهم الثبات ويروج لأصولية فكرية وعقائدية أفضت إلى كارثة التخلف والعقم الفكري والروحي. لو أراد اليسار التكاتف ضد الوحش السلفي ذي الرأسين، الأصولية السياسية والدينية، لأمكنه تقرير الحقائق المهمة وكشف المعطيات الأساسية التي يحاول مروجو الأصولية إخفاءها. لو أراد لكفَّ عن «التفكير في» الحركة وشرع في خلقها والانخراط فيها، ولتخلى عن اجترار قيم القومية الثابتة وأعاد اكتشاف موقعه الحقيقي من العالم.

تفاح وليمون

هو اسم جذّاب لمَقهًى ومطعم كان صاحبه يعمل سجَّانا قبل أن يعتزل مهنة السجن ويتفرغ لخدمة (ومراقبة!) الزبائن. صاحب المقهى رجل لا يتجاوز الخامسة والخمسين، يبتسم دائمًا ويزاول عمله بهدوء، رغم أن السِّمة الأساسية في كل عمل يمارسه الناس هنا هي السرعة وهوس الإنجاز. قريبًا سيرحل عن مدينة «جاتينو» التي تقع على الحافَةِ بين مقاطعة «كيبك» ومقاطعة «أونتاريو» الكندية، وهي المدينة المُلاصقة للعاصمة «أوتاوا» التي يفصلها عنها عدد من الجسور والكباري. يقول إنه يشعر بالملل؛ لأن المدينة تنام في الثامنة مساءً ويتمنى الانتقال إلى منطقة «اللورانتيد» (نسبة إلى نهر سان لوران) لأن مدنها تظل مستيقظة حتى الحادية عشرة مساءً! كل طموحه في الحياة أن يجد من يتحدَّث معه في الليل، فالمقهى لا يقدم الكحول ولا يجتذب السهارى ويغلق بابه قبل غروب الشمس. الحياة هنا تحددها الساعات، والساعات تحدِّدها الشمس، والشمس حين تغرب تفرِض على الناس الانسحاب لما يشبه بيوت الطاعة، لا يغادرونها قبل السابعة من صباح اليوم التالي. هذا النظام القاتل لم يقتل أحدًا بعدُ، لكنه يلوِّح بذلك منذ زمنٍ.

هل سمعت عن حوادث الانتحار مؤخرًا في كيبك؟ نعم، لكنها ليست بنفس كثافة الحوادث في السويد واليابان. بالنسبة إلى عدد السكان الضئيل (المقاطعة بأكملها تؤوي سبعة ملايين نسمة) تُعد هذه النسبة مؤشرَ خطرٍ لا يُستهان به. يعلق صاحب المقهى: الناس يشعرون بالملل واللاجدوى. يجب أن ننجب أولادًا يملئون علينا الدنيا. يُضيف أحد الجالسين على «البار»؛ موقِع المقرَّبين والزبائن المُستديمين: يجب أن نكفَّ عن الشكوى وأن نفتح الباب للهجرة. لا يعجب الكلام صاحب المقهى، يترك موقِعه خلف البار ويتَّجه صوْب مائدة بعيدة وينهمك في تنظيفها. لا أشارك في الحديث خوفًا من أن يفهم تعليقي على أنه دفاع عن المهاجرين ضد أصحاب كيبك الأصليين الذين يتباهون بأنهم هنا منذ مئات السنين (هذه المئات لا تزيد بالمناسبة عن أربعمائة سنة). كما أني لا أحب أن أخسر رفاق المقهى، فهم طيبو القلب وبسطاء ويُشْعروننني بالألفة كأنما أجلس بين رفاقي في القاهرة في مقهى ريش أو استوريل.

«بوم إيه سيترون» هو اسم المقهى بالفرنسية. أعتقد أنها إشارة إلى روائح الشاي ذي النكهة وروائح الشمع المستخدم في الزينة وصابون الحمام المعطر والبخور. يبيع المقهى تلك المنتجات وغيرها فضلًا عن أنواع القهوة الكولومبية والبرازيلية والعربية، والشاي بنكهاته المتعددة؛ منها نكهة الفواكه اللذيذة، ونكهة التوابل الحارقة، ونكهة الإيرابل المسكرة (الإيرابل هي شجرة القيقب التي ترمز ورقتها الثلاثية إلى كندا). يُعتبر الشاي ذو النكهة اكتشافًا حديثًا نسبيًّا هنا، حيث أصبح الناس لأسباب صحية يفضلونه على القهوة ولا يكتفون بشربه بعد الطعام ولكن أحيانًا في أثنائه على الطريقة الصينية، وبخاصة الشاي الأخضر الذي يساعد على الهضم. بعض تجار الشاي هنا

يبيعون الأنواع الفاخرة بمئات الدولارات، وقد يساوي الفنجان الواحد أحيانًا عشرين دولارًا أو يزيد. لكني شخصيًّا لا أُدرك الفرق. لم أكن يومًا ذوَّاقة بشكل خاص لأي نوع من أنواع الطعام أو الشراب. يضحك صاحب المقهى على ذلك ويقول: لا بُد أنك طاهية فاشلة! الحق يقال، هذا صحيح، لكني أعترض بخجل على كلمة «فاشلة» (هل صِرنا فجأة أصحابًا حتى يتباسط معي بهذا الشكل؟!) وأشرد بذهني في مسألة علاقتي المقطوعة بالطهي. لم أهتم بتطوير معرفتي به؛ لأني أشعر بالملل من مجرد التفكير في الطعام، ولأني أفضل قضاء الوقت في عمل أشياء أخرى تبدو لي أكثر إثارة؛ مثل القراءة أو الكتابة أو الراحة والحملقة في السقف! أترك الطهي عادة للظروف والمزاج الشخصي ولا أهتم بأن أكون «امرأة كاملة» بالمعنى الشائع للكلمة في مصر. الرجال هنا يطبخون بالتناوب مع زوجاتهم، يعدون وجبات خفيفة أو معقَّدة وفقًا لمقدرة كل منهم، لكنّ الكثيرين يفضلون أن تقوم المرأة بهذه المهمة باعتبارها «أدرى» بها، وكأنها وظيفة طبيعية وراثية أو بيولوجية رغم كون الأمر من وجهة نظر النساء مجرد عُرف اجتماعي.

يقطع صاحب المقهى حبل أفكاري ويريني بفخر قصاصة جريدة موضوعة في إطار مُذهَّب ويقول: هذه ابنة أختي، كتبت كتابًا عنوانه «جواز سفر لإيران». الخبر مصحوب بصورة ملونة بالحجم الكبير لفتاة لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، ومنشور في أهم جريدة كندية تصدر بالفرنسية اسمها «لو دوفوار» أو «الواجب». يشير اسم الجريدة إلى واجب المواطن الفرانكوفوني في مقاطعة كيبك التي يحلم نصف سكانها بالانفصال عن كندا ويوقظهم النصف الثاني من الحُلم على الحقيقة المُرة القائلة بأن المقاطعة ستبقى حتى إشعار آخر كندية فيدرالية. موضوع الانفصال موضوع حساس لا أجرؤ على الخوض فيه مع صاحب المقهى ورواده، ليس قبل أن تتوطَّد بيننا المحبة. في المقابل يسألني أحد الجالسين فجأة: هل أنتِ مسلمة؟ يأتي السؤال في سياق الحديث عن كتاب ابنة أخت صاحب المقهى وما أثاره الخبر المصور من اهتمام بين الحضور، خصوصًا أنهم قرَّروا تعييني خبيرة إسلامية عربية شرق أوسطية دون أخذ رأيي ودون سابق معرفة (أتذكر أن أحد العجائز سألني ذات مرة: هل مصر هي إيران؟). أجيب: نعم، أنا من أسرة مسلمة. ويقول مستغربًا: لكنك لا ترتدين الحجاب. آه، هناك الكثيرات مثلي، لا يؤمنَّ أن الحجاب فريضة. لا يفهم تمامًا ما أقصِدُ. يعلِّق أحد الجالسين البعيدين عن البار: أنت مسلمة؛ لأن ثقافتك إسلامية، صح؟! أجيبه متهللةً بالعربية: يا سلام عليك! ولسان حالي يقول: يا ألله! واحد فهم! يردد الرجل ورائي بالعربية الركيكة: يا سلام، يا سلام... وبينما يعيد صاحب المقهى صورة ابنة أخته إلى مكانها على الحائط، يتقدم الرجل ليجلس بيننا وقد شعر فجأة بأنه محطّ إعجاب الحاضرين وخصوصًا الأجانب مثلي، فيما يصُبُّ صاحب المقهى القهوة للجميع على حساب المحل، فاتحة لحديث طويل عن مصر والمصريين.

في مقهى «تفاح وليمون» تعرَّفت على عاطل بالوراثة اسمه «ماريو». لماذا لا تعمل يا ماريو؟

لا يرد... يشرب قهوته ثم يضحك ضحكة عالية ويُغير الموضوع. جاء ماريو في سيارة بي إم دبليو أحدث موديل؛ سيارة أنيقة لونها أزرق داكن، مغسولة بعناية ونحن في عز الثلج. الأوحال الناتجة عن الثلج تجعل السيارات في حالة يُرثَى لها من الاتساخ، إلا سيارة ماريو. أعلن على الجميع فور دخوله أن أمه ستأتي للقائه بعد قليل بصحبة صديقتها. قال إنهما جارتان منذ أكثر من خمسين سنة، وصديقتا عُمْر. منتهى الشجاعة! صداقة تدوم خمسين عامًا؟! كيف يحتمل الناس بعضهم بعضًا كل هذا الوقت، بلا انقطاع؟

تعجب ماريو من سؤالي الذي بدا وكأنه جرح مشاعره. صحيح، كيف يحدث هذا؟ أعتقد أنني شخصيًّا لا قدرة لي على احتمال العلاقات الطويلة وما يتبعها من طقوس وعادات. لا أتذكر أن صديقة واحدة دامت علاقتي بها أكثر من سبع سنوات، ولم نكن نلتقي سوى مرتين أو ثلاثة في الشهر. قال ماريو: لكنها أمي، وهذه صديقة عمرها، فهمتِ؟ لم أفهم. هل أمه كائن خاص من كوكب آخر؟ وما علاقة أمه بموضوع الصداقة الذي أردت فتحه لتمضية الوقت؟ لنترك أمك جانبًا ولنفكر في مسألة الصداقات طويلة الأمد. كم عمرك يا ماريو؟ لا يرد. حتى الرجال يفضلون إخفاء سِنهم الحقيقية. لا بأس، لنقُل إنك في الأربعين. هل لديك صديق واحد تعرفه من ثلاثين سنة؟ لا يرد. من عشرين سنة؟ طبعًا، عندي أصدقاء من المدرسة الثانوية. أراهم مرة كل ستة أشهر لنلعب الجولف. وتتزاور العائلات أحيانًا في المناسبات الكبيرة؛ عُرس، مأتم، مولد طفل. ألا تسمين هذا صداقة عمر؟ هذه المرة أنا التي لا ترد. تعريف الصداقة مسألة ثقافية وربطها بالعمر مسألة فيها قولان.

نغير الموضوع. ماريو متوتِّر لأن أمه على وشك الوصول. يطلب سلطانية قهوة باللبن. يختار الزبائن أن يشربوا القهوة في كوب عادي أو في سلطانية مثل الشوربة. يسأل أحد الزبائن المقربين صاحب المقهى الواقف خلف البار: هل تلعب الجولف؟ آه، أحيانًا. لكني أفضل الطيران في الصيف والتزحلق على الجليد في الشتاء. صاحب المقهى الذي كان يعمل سجَّانًا فيما مضى، يتمتع بمِسْحة من الشاعرية والرغبة في العزلة تطفو على السطح من آنٍ لآخر. لم أكن أعرف أنه يهوى الطيران. ثم لاحظت أن تمثالًا صغيرًا على هيئة طيار من بدايات القرن يستقر على الرف خلف البار. تذكرت أن العاصمة الكندية «أوتاوا» مشهورة برياضة الطيران وأن للهواة مطارات صغيرة خاصة عند حدود المدينة. لكني لم أسأل أحدًا عن سر ذلك. لا أحب أن أمِّثل دور السائح التائه.

لم ينتبه ماريو إلى مسألة الجولف التي أراد الزبون فتح الكلام عنها، كان مشغولًا بحل الكلمات المتقاطعة. التقط صاحب المقهى خيط الحديث وقال: الجولف زمان كان رياضة محدودة، لكن المسألة تغيرت الآن. عندنا في المنطقة هنا نحو عشرة نوادي جولف مفتوحة للجميع بأسعار زهيدة. قلت للتأمين على كلامه: فعلًا، سكرتيرة القسم الذي أعمل به تلعب الجولف كل أسبوع.

سأل ماريو فجأة: من هم المجيار؟ قلت: هم سكان المجر. كانت كلمة «مجريون» الكلمة الأخيرة لإنهاء الكلمات المتقاطعة. تنفس ماريو بعمق وابتسم سعيدًا وهو يطوي الجريدة. قال: هل تلعبين الجولف؟ قلت مستنكرة بصوت راقية إبراهيم في دويتو الجلاس: بالطبع لأ! هي رياضة للأغنياء فقط. ثم إني لا أحب الرياضة بصفة عامة.

للمرة الثانية في ظرف عشرين دقيقة يُصاب ماريو بالدهشة والامتعاض بسببي. لا تحبين الرياضة؟! وماذا تفعلين في عطلة نهاية الأسبوع؟ أُحملِق في السقف، هذا ما أفعله. أقرأ، أفكِّر، أتفرج على فيلم... يعني. ألا تذهبين إلى الجيم أبدًا؟ لا، لا، جيم إيه! الجيم مكان مملٌّ فعلًا. ولماذا يجب أن نمارس الرياضة هكذا مثل المجانين، وكأننا سندخل الأولمبياد؟ يرد ماريو: الصحة العامة، اللياقة، الحياة أطول وقت ممكن بصحة جيدة... كل هذا مهم، أليس كذلك؟ أوكي، مهم... لكن بالراحة ودون هذا الحماس المبالغ فيه وكأن الجيم دار عبادة. قال أحد الزبائن: هي تقصد أنها لا تمارس رياضة بعينها، لكنها تمشي وتعمل وتتحرك، هي دي الفكرة.

في الثلاثين سنة الأخيرة، أصبحت بعض الطقوس الدنيوية أقرب إلى الطقوس الدينية القديمة، مثل طقس الكلام في السياسة أو طقس الذهاب إلى الجيم أو طقس تفسير الدين. أصبح كل إنسان مطالبًا بأن يكون له رأي في السياسة، وكل إنسان مطالب بأن يُدلي برأيه في الانتخابات، وكل إنسان يتصور أنه يفهم في السياسة أحسن من السياسيين، وأن رأيه مؤثر وفعّال. مجرد دعاية مغرضة في ديمقراطيات فقدت مصداقيتها في الحروب العالمية الأولى والثانية (والثالثة التي نشهدها الآن)؛ لأن رأي الجماهير لم يكن مؤثرًا إلا فيما ندر، وعادة بعد فوات الأوان.

الرياضة أيضًا تحولت بوهم الديمقراطية إلى طقس يومي شبه مقدس، ليس فقط لسلامة الجسم ولكن لمنافسة الرياضيين أنفسهم في اللياقة والحرفنة. «الرياضة للجميع» شعار انقلب إلى فريضة، مَن يخالفها يعتبر منشقًّا على الجماعة، غريبًا، طريدًا. كل إنسان يستطيع اليوم بوهم الديمقراطية أن يحل محل السياسي المتخصص والرياضي المتمرس وعالِم الدين الفقيه، هكذا ببساطة، وكأن هناك وصفة جاهزة وتكنيكًا معروفًا يكفي أن يطبقهما الواحد لتتحقق النتيجة المرجوة. لم أقل هذا لماريو. اكتفيت بالسخرية من المتعصبين للرياضة «هنا في كندا» والدفاع عن محبِّي الكسل من العقلاء «هناك في مصر». تعجبني لُعبة قلب الموازين، خصوصًا حين تبدو الفوارق بين ثقافتين أو بين نسقين من الأفكار هائلة. فلا التعصب حِكْر على العرب ولا العقل حكر على أوروبا، وكل تلك الأفكار التي تبدو وكأنها مفروغ منها تحتاج إلى مراجعة، أو على أقل تقدير إلى مساحة من التهكم تجعلها قابلة للمراجعة. عندئذٍ تصبح السخرية من جميع الأطراف حلالًا بينًا لكل من يرى ويعقل.

العجائز

يقع بيت «العجائز» على بُعد نحو مائة مترٍ من بيتنا. في الشارع المتقاطع مع شارعنا بيتان آخران من ستة طوابق مخصَّصان لكبار السن (الكلمة المُهذبة التي حلَّت محل كلمة «عجائز» تمامًا كما حلت كلمة «عميل» محل كلمة «مريض» في المستشفيات الحديثة). في كل حي من أحياء المدينة، هناك بلوكات سكنية كاملة يسكنها كبار السن فضلًا عن بعض البِناياتِ المتناثرة هنا وهناك؛ التي تتكون من وحدات سكنية صغيرة مستقلة، وتشمل أماكن للتجمع ومطعمًا وحلاقًا ووحدة عناية طبية. يسكن في هذه البِنايات رجال ونساء تتراوح أعمارهم بين السبعين والتسعين، بعضهم بصحبة زوج وبعضهم وحيدًا، بعضهم بصحة جيدة والبعض الآخر لديه إعاقة أو بحاجة إلى متابعة طبية مستمرة. يتجول العجائز في الصباح الباكر في منطقتنا، يذهبون إلى محلات بعينها، مقهًى هادئ يقدم قهوة فرنسية وكرواسان بسعر زهيد، ساحة ظليلة وسط البيوت لا يرتادها الأطفال ولا تمر من أمامها السيارات، يتجول بعضهم على كرسي متحرِّك كهربائي ويستعين البعض الآخر بمشَّاية أو عكاز؛ بينما يتقدم الكثيرون بهمة ونشاط دون مساعدة من أحد. النساء أنيقات يعتنين بقصة الشعر ويضعن المساحيق، والرجال مشغولون بثنية البنطلون ولمعة الحذاء. ينتشر عطر العجائز في المنطقة صباح السبت والأحد بشكل خاص، عطر تختلط فيه رائحة الزيوت والدهون القديمة برائحة الملابس المخزونة وأدوية السعال. رائحة تؤكِّد خوف العجائز من البرد الذي يدفع بعضهم لرفض مبدأ تهوية البيوت من أساسه والاعتماد على العطور وحدها للتمويه. يخرج العجائز للنزهة في الصيف وفي الخريف وأحيانًا في الربيع، أما في الشتاء فيلزمون بيوتهم ويزداد عدد المصابين بالاكتئاب وعدد الموتى أيضًا.

والحقيقة أننا لم نعد نطلق على من هم في سن السبعين أو بعدها بقليل لفظ «عجوز»، فقد طالت الأعمار وازداد كبار السن قوة ونَهمًا للحياة حتى أصبح بلوغ الثمانين والبقاء بصحة جيدة أمرًا عاديًّا ومتوقعًا، خصوصًا أن متوسط عمر الإنسان في ازدياد مطرد. في المقابل، تعاني المجتمعات الجديدة مثل المجتمع الكندي من «كهولة سكانية» حادة يلمسها الإنسان العادي في كل مكان وتؤكدها الإحصائيات والدراسات الاجتماعية، كهولة تشيع روحًا من اليأس لا أدري إذا كان مصدره كثرة العجائز أو قلة الأطفال أو النسبة المختلة بينهما. ورغم أن المواطن العجوز الذي يتمتع بصحة جيدة لا يشكل عبئًا على الدولة، فإنه ليس مُنتجًا بالضرورة (يزاول بعض النشيطين عملًا خيريًّا أو تطوعيًّا لقضاء الوقت)، وكثيرًا ما نسمع قائلًا يقول: لقد منحت المجتمع من كدِّي ووقتي الكثير وآن لي الآن أن أستريح. بعد تربية الأولاد وإعالتهم حتى دخول الجامعة أو الحصول على وظيفة تؤهلهم بدورهم للادخار السريع بهدف الحصول على المعاش المبكر، يفضل الكثيرون التوقف عن العمل في سن الخامسة والخمسين أو بعدها بقليل وتشجعهم الدولة على ذلك لتخفيض

المرتبات وإتاحة فرص عمل للشباب. هكذا، قبل أن يصبح الإنسان عجوزًا متهالكًا، يقضي سنوات في مرحلة عمرية وسيطة تبدو وكأنها مُهدرة، بين الستين والثمانين، بلا عمل وبلا طموحٍ.

يقول أهل المعاشات هنا: إن الحياة تبدأ بعد الستين. يشوب هذا المنطق بعض الادعاء والمبالغة؛ لأنه يفترض أن العمل كله تعاسة وشقاء والراحة كلها سعادة وهناء. القيمة الأساسية التي يدافع عنها الناس هي حق الإجازة وقضاء وقت الفراغ في الكسل والراحة، وكلما تقدم الإنسان في العمر وفي الوظيفة سعى للحصول على أكبر وقت فراغ ممكن في أقرب فرصة ممكنة. الناس هنا يدافعون عن هذه القيمة بشراسة، سواء من خلال النقابات والاتحادات المهنية أو من خلال المطالبة بمعاش مبكر. في المجتمعات الرأسمالية الحديثة ناضل العمال والمهنيون طويلًا من أجل الحصول على إجازات مدفوعة ولم يحصلوا عليها إلا في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين. المشكلة أن فترة الراحة المفترضة بعد المعاش قد تمتد أحيانًا لثلاثين عامًا أو يزيد. وعلى الرغم من قدرة الكثيرين على العمل فإنهم يفضلون الاستمتاع بما تمنحه إياهم الدولة من رعاية في مقابل ما دفعوه من أموال واستقطاعات لهيئة المعاشات، لكن فترة الرعاية زادت بزيادة متوسط عُمْر الفرد وأصبحت تمثل عبئًا يجب على الدولة أن تتكفل به في المستقبل. يفترض هذا المنطق نوعًا من الفردية لا يخلو من أنانية أصيلة يبررها الكثيرون بمنطق مقاومة الاستغلال السائد في ساحة العمل نفسها. لكن دائرة الحقوق مُغلقة بمتراسٍ على حق الفرد الواحد وليس حق الجماعة، وقيمة العمل ذاتها لم تعد مطروحة بقوة في إطار انهيار نظام الدولة الحديثة من ناحية وممارسات الرأسمالية المتوحشة من ناحية أخرى.

يبقى أن أهم نشاط فردي يزاوله العجائز هنا هو السياحة المنظمة داخل كندا وخارجها. تجدهم يملئون الطائرات والقطارات والسفن والباصات، بلاد تشيلهم وبلاد تحطهم، بلا كَلَلٍ، فُرادى وجماعات، يقطعون الأرض شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا، مندفعين وراء حُلم زيارة الأماكن التي لم يزوروها في شبابهم والتي أصبحت قريبة متاحة وسهلة المنال بعد سنوات من العمل والادخار. يختار الكثيرون السفر مباشرة بعد الحصول على المعاش ويجهزون أنفسهم لقضاء فترة من حياتهم في التَّرحال بنشاط وهِمة يُحسدون عليها، حتى إن البعض يظل في عطلة سفر شبه ممتدة بين الستين والثمانين. عشرون عامًا أو يزيد من الرحلات الترفيهية والسياحية، من النشاط والحركة الدائمة والرغبة في الاكتشاف، يعودون على إثر كل رحلة محمَّلين بالصور التذكارية كدليل قاطع على نجاح الخُطة، وكأن الهدف من العمل طوال ثلاثين عامًا مضت هو قضاء الثلاثين عامًا التالية على أجمل شواطئ العالم في كوبا أو في إسبانيا، في جنوب فرنسا أو في فلوريدا، في جزر الباهاماس أو في بلاد تركب الأفيال. سياحة أهل المعاشات والعجائز سياحة رائجة، تمامًا مثل تجارة منتجات التجميل؛ الأولى تحقق وهم الحركة والتغيير، والثانية تحقق وهم الثبات والشباب الدائم. في الحالتين، ثمة مستهلك جديد يطرح رغباته بقوة وعلى السوق الآن أن تلاحقها.

أحباب الله.. والدولة

كان ابني في السابعة من عمره حين عاد إلى البيت مبتهجًا على غير عادته. منذ سافرنا إلى كندا وهو يذهب إلى المدرسة في الثامنة صباحًا ويعود إلى البيت في السادسة مساءً، مُستاءً، مطالبًا بأن يبقى ساعة إضافية في الحديقة العامة المقابلة للمدرسة ليستمتع باللعب مع أصحابه. ثم تظل لديه طاقة للعب والقراءة والفرجة على الأفلام ومشاكسة أخيه الأصغر حتى يأتي موعد النوم في التاسعة. منذ جئنا إلى هنا، أصبحت المدرسة مصدر سعادة بالنسبة له، ولم تعد طاردة كما كان الحال في مصر. ثم ذات يوم، عاد إلى البيت سريعًا على غير العادة، وبدا كأن لديه خبرًا هامًّا لا يطيق صبرًا على إبلاغي به.

ماما! تعرفي؟ لو ضربتيني ممكن أكلم بوليس الأطفال وأخلِّيه يحبسك. ضحكتُ غير مصدقة وقلت: لكن أنا ليه أضربك يا حبيبي؟ أنت عملت حاجة وحشة؟... لا... بس يعني لو... تقصد إن فيه بوليس للأطفال فعلًا؟... طبعًا يا ستي! نمرة البوليس مكتوبة في أجندة المدرسة. وبعدين همَّ قالوا لنا نعمل كده. مين هُمَّ؟... الناظرة والمدرسة. كففت عن الضحك وقلت في نفسي: لازم أرجع مصر فورًا! لم يكن قد مضى شهران على وصولنا إلى كندا، والولد يتهدَّدني ويتوعدني. كنت أعتبر أن من حقي أن أعاقبه بالضرب (الخفيف والله) أو بتعنيفه قليلًا لو زاد صياحه وتمادى في الشقاوة أو لو خالف تعاليم الأدب في الحديث. لكن أن يصل الأمر إلى بوليس للأطفال؟ ما هذا الكلام الفاضي؟!

حاولت أن أتذكر متى كانت آخر مرة عاقبته فيها بالضرب. ربما منذ شهر أو منذ أسابيع. عادة حين يخطئ، أفضِّل حرمانه من الخروج أو منعه من الفرجة على التلفزيون ولكني نادرًا ما ألجأ إلى الضرب. أعتبر نفسي أمًّا رحيمة، والولد لم يشكُ قطُّ من معاملتي له. وها هو فجأة يُحاسبني ويزعزع سلطتي التي كنت أعتقد أنها راسخة بحكم الأمومة وبحكم فارق السن.

مرت عشر سنوات على تلك الحادثة، كففت فيها عن ضربه تمامًا ولو من باب الدلع، ليس خوفًا من بوليس الأطفال ولكن لأنني حاولت فهم بهجته ذلك اليوم، حين جاء ليعلن لي وجود سلطة أخرى فوق سلطتي، سلطة تحميه مني وتضع حدًّا للأساليب القديمة في التربية بمنطق «اكسر للبنت ضلع». أدركت منذ ذلك الحين كم كان مجرد التهديد بالضرب يؤذي مشاعره، وكم أصبح احترامه لي مرهونًا بسلطة من نوع آخر، هي في الواقع سلطة محبتي له. أصبح خوفه من غضبي عليه ومن فقدانه لتلك المحبة أهم لديه من الخوف على نفسه من الأذى الجسدي ولو كان بسيطًا. كما لو أن التكشيرة وحدها باتت كافية لاعتدال ميزان القوى.

منذ أيام، رنّ الهاتف في العاشرة مساءً وقلنا جميعًا: خير! لا يرن الهاتف في مثل تلك الأوقات المتأخرة من الليل لأن الناس «في أوروبا والدول المتقدمة» يحترمون مواعيد العمل المبكِّر والنوم

المبكر. كان المتحدث واحدًا من أصدقاء ابني، ولد في كندا لأسرة من أصل آسيوي. سمعت ابني يضع سماعة الهاتف بعد ثوانٍ ويأتي مهرولًا إلى غرفة المعيشة. هل ممكن صاحبي «ك» ينام عندنا الليلة دي؟ طبعًا يا حبيبي، طبعًا. إيه اللي حصل؟ أعرف الأم والأب معرفة سطحية، الأم تعمل في مجال الأزياء، والأب أستاذ جامعي، والولد من أشطر الأولاد في الصف. ماذا يمكن أن يحدث؟

جاء الولد (الذي أصبح شابًّا يافعًا وما زلت أنا أعتبره «ولدًا») بعد نحو ساعة من تلك المكالمة وكان بصحبة ضابطة من شرطة الأحداث. كان وجهه مغطًّى ببعض الجروح والكدمات الزرقاء، وكانت ملابسه متهدِّلة على غير العادة ولم تكن معه حقيبة. قالت الضابطة إنها ستتركه في رعايتنا هذه الليلة ويمكنها أن تعود لاصطحابه في اليوم التالي، وأضافت أن والديه سيتعهدان أمام الشرطة بعدم ضربه ثانية. ثم سألتني الضابطة إن كنت أستطيع اصطحابه إلى المدرسة غدًا صباحًا على أن تذهب هي بعد انتهاء الدروس لتسليمه لوالديه. أجبت بالإيجاب، ووقعت على ورقة باستلام «العهدة»، وأغلقت الباب وقد انعقد لساني من فرط الحزن.

ماذا أفعل الآن؟ هل آخذ هذا الولد في حِضْنِي وأُهَدهِده حتى ينام؟ لم يعد صغيرًا ولم يعد بحاجة إلى من يهدهده. هل أحاول الترفيه عنه كأن شيئًا لم يحدث، كأنني لا أرى جروحه الظاهرة والباطنة؟ هل أسأله عما حدث وألحّ بالسؤال لكي أساعده على التخلص من خوفه؟ لا بد أنه حكى كل شيء للبوليس، لا بد أنه منهك ومرتبك ومكسوف، لا بد أنه يحتاج إلى الكلام مع ابني وليس معي. قررت أن أترك الولدين معًا بعد أن أعددت لهما بعض الشطائر وانسحبت إلى غرفتي وأنا أفكر فيما يمكن أن يدفَع أبوين على درجة من العلم والثراء لإيذاء ابنهما الوحيد إلى حدٍّ دفعَه للجوء إلى الشرطة لحمايته. عرفت فيما بعد أنهما يحاسبانه على أصغر هفوة بالضرب والإهانة، وأنهما يربيانه بطريقة عسكرية منذ الصغر، وأنه دأب على حبهما رغم كل شيء وعلى محاولة كسب ثقتهما، حتى طفح الكيل وأصبح الحل الوحيد هو فضح القسوة وقطع عهد المحبة.

أدركت أن الدولة في كندا حلَّت محل الأسرة والجيران في رعاية الأطفال وتربيتهم، وأن تأثير المجتمع الكبير وتدخله أقوى من تأثير الجماعة الصغيرة ودورها. لا شكَّ أن لقوانين حماية الطفل التي كان من نتائجها تخصيص فرقة شرطة لحماية الأبناء أسبابًا ومبررات نشأت من واقع العنف والاستغلال الذي يتعرض الأبناء له من قِبَل آبائهم وأمهاتهم. تُرى هل لهذه القوانين ما يُعادلها في مصر لكنها لا تطبق مثل قوانين المرور وقوانين حقوق الإنسان؟ وماذا يحدث لو لجأ «ك» إلى الأهل والجيران في كندا لحل مشكلته مع أبويه؟ أو لجأ شاب في مثل سنه إلى الشرطة في مصر لحل نفس المشكلة؟ هل هناك مساحة تفاوض مع القوانين والأعراف؟ وهل تجرد الناس تمامًا من مسئوليتهم وسلموا عقولهم وحريتهم للدولة، أم أنهم في ظل غياب الدولة أفرطوا في التحايل على القانون حتى سابت الدنيا وانتشرت الجريمة؟

جسم الإنسان

وصلني بالبريد هذا الصباح كارت التأمين الصحي الجديد من مقاطعة كيبيك الكندية. الصحة هنا خدمة شبه مجانية لكل المواطنين، لكن قوائم الانتظار لمقابلة طبيب أو لإجراء جراحة عاجلة قوائم طويلة ومُعقدة، كما أن معظم الأدوية بما في ذلك المضادات الحيوية لا تُصرف إلا بأمر الدكتور. الكارت الجديد يحمل صورة قديمة، حيث يتم تجديده بشكل أوتوماتيكي ولا يطلب من المواطن الذهاب إلى مكتب الصحة لالتقاط صورة حديثة. وبذلك نبدو جميعًا أصغر سنًّا وفي صحة جيدة ونهنئ أنفسنا.

وجدت في المظروف إعلانًا من وزارة الصحة يدعو الناس للتبرع بأعضائهم بعد وفاة صاحب أو صاحبة الكارت. ومع الإعلان ستيكر يمكن لصقه على الكارت للسماح باستخدام أعضاء الجسم في حال وقوع حادث. يختار المواطن إذن طريقة التعامل مع جسده بعد الموت، ولو أراد، يستطيع أن يترك وصية لوزارة الصحة تفيد بأنه يفضِّل أن يستفيد العلم والناس بجسمه على أن يتحلل ويذهب نهائيًّا إلى التراب.

من حق الإنسان إذن أن يتبرع بأعضائه في حياته ومن حقه أيضًا أن يقرر ماذا يفعل بجسمه بعد الموت وأن يختار وسيلة الدفن المتماشية مع قناعته الشخصية وأفكاره وعقيدته، وعادة ما يتم ذلك بالتشاور مع الأهل والأبناء. الشرط الوحيد للتبرع بأعضاء الجسم بعد الوفاة هو أن تكون الأعضاء سليمة، وأن يتم استئصالها سريعًا وفقًا للشروط الطبية المعمول بها، وأن تستخدم لإنقاذ المرضى الذين يحتاجون إلى زراعة أعضاء جديدة بلا مقابلٍ مادي؛ لأنها ليست تجارة تهدف إلى الربح ولكنها خدمة للطب والإنسانية. ولكن ماذا يحدث للأجزاء المتبقية من الجسم؟ هل يتم إعادتها إلى أهل المتوفى؟

كنت طالبة في كلية الآداب في مصر وكان عندي أصدقاء كثيرون في كلية الطب وكنت أسمعهم يشكون من ندرة الأجساد البشرية التي يمكن استخدامها في محاضرات التشريح وصعوبة الحصول على الأجزاء المختلفة لدراستها و«مذاكرتها» على الطبيعة. وكنت أقول: إنني يومًا ما سأتبرع بجسمي لكلية الطب. فيضحك مني أصدقائي ويقولون: حتى لو أردتِ ذلك فالمجتمع لن يسمح لكِ، يعني لا مناصَ من الدفن. ثم إن أجساد الفقراء في المدافن العمومية تؤدي الغرض، ولا من شاف ولا من دِري.

فيما بعد أدركت أن هناك طرقًا أخرى غير الدفن المعتاد عندنا للتخلص من الموتى، منها مثلًا الحرق على طريقة بعض الشعوب الآسيوية. في كندا، بعد أن أصبحت تكلفة الدفن في المقابر عالية بدرجة جنونية قد تصل إلى عشرين ألف دولار كندي للميت الواحد ظهرت موضة الحرق التي يختارها البعض؛ لأنها الوسيلة الأقل تكلفة. عادة ما يوصي الإنسان قبل موته بالطريقة التي

يود أن يُدفن بها، وكثيرون أصبحوا يختارون الحرق ويدفعون التكاليف اللازمة في أثناء حياتهم، حتى لا يتحمل الأبناء عبء المصاريف بعد الوفاة. كيف يتم الحرق إذن؟ بعد ساعات في فرن خاص يوضع فيه التابوت بالكامل ليحترق مع جسد الميت، يتسلم الأهل رماد المتوفى في إناء فاخر، يوصي البعض بإلقاء الرماد في البحر أو في النهر ويختار البعض الآخر الاحتفاظ به في قبو في البيت. ولكن أبناء الشعوب الآسيوية يضعون الإناء في موقع متميز ويحيطونه بالشموع ويؤدون طقوس الصلاة والحِداد حول رماد المتوفى في المناسبات والأعياد.

بعد تفكير عميق استغرق نحو خمس دقائق، ألصَقتُ الستيكر المرفق على الكارت وأنا أتخيَّل رد فعل أمي. قلت لنفسي إنها لا شك ستتشاءم من هذا الحديث برمته ولن يعجبها أن يتفرق جسد ابنتها في أجساد أخرى وألَّا يُدفن في النهاية «صاغ سليم». ثم فكرت أنها أيضًا متفتحة الذهن وتدرك أهمية أن يشارك كل إنسان على طريقته في نهضة العلم لصالح البشرية كلها، وأنها ربتني على اعتبار الموت قانون حياة. ثم تذكرت دعاءها لي وأنا صغيرة: ربنا يحبِّب فيكِي خلقه! وقلت لنفسي إن ربنا لا شك قد سمع دعاء الوالدة وإنه سيجعل خلقه الذين لم يعرفوني حية يحبونني حتى بعد موتي. هذا بالطبع لو افترضنا أن الموت سيأتي في اللحظة المناسبة التي تجعل للجسد فائدة طبية. أما لو جاء متأخرًا كما يتمنى كل الناس، فالستيكر المُلصَق على كارت الصحة الكندي لن يكون له معنًى.

في النهاية أعجبتني فكرة الاختيار الواعي بما يمكن للإنسان، أي إنسان، أن يفعل بجسده. طبعًا القانون يحرم ويجرم ممارسات كثيرة، فالحرية التي يتمتع بها الناس في المجتمع ليست مطلقة، حتى فيما يخص أجسادهم. يمكن مثلًا إيذاء الآخرين جسديًّا في مواجهات العنف بين الشرطة والشعب أو بين الجيوش المتحاربة أو بين أنصار الفرق الرياضية المتنافسة، ذلك أن القوي يتصور أن من حقه التعامل مع جسد الضعيف بوصفه ساقط ملكية.

الأديان من جانبها تحدد طرقًا معينة للتعامل مع الجسد الحي بتغطيته وحجبه واعتباره عورة ونجسًا إلى آخر تلك القائمة المعروفة. وللأديان أيضًا طرق في التعامل مع الجسد الميت: الحرق مثلاً عند الهندوس مسألة دينية لا فِصال فيها، أما بعض المسيحيين في الغرب فيفضلون عرض المتوفى في تابوت مفتوح حتى لو مضى أسبوع على وفاته، لكي يودعه أقاربه الوداع الأخير قبل أن يُدفن، بينما ينصح المسلمون بإكرام الميت بالدفن فور وفاته، في لحد أو في قبر. وما زالت بعض الشعوب ترى أن التخلص من الحياة جريمة، وأن التبرع بأعضاء المتوفى جريمة، وأن التبرع بالجسد لمشرحة كلية الطب جريمة، ما زال الخوف الغريزي من الموت أقوى من الحكمة الشعبية التي تقول: «إن الحي أبقى من الميت»، وأقوى من العقل الذي يقول: «إن العلم أنفع من الخرافة».

... على اختلافها تأتي ومعها بهجة أكيدة-ولو كره المتنبي- يحتفل بها الناس جميعًا بلا استثناء، كلٌّ على طريقته بدرجات متفاوتة من الفرحة. ثلاثة وأربعون عامًا ويزيد قضيتها في انتظار فرحة العيد، في تقسيم السنة لمراحل تسبق وتتلو عيدًا ما. المركز عيد ميلادي، وهو أيضًا منتصف العام بالتمام والكمال، قبله أعياد كثيرة وبعده أيضًا أعياد كثيرة. لا يتذكر عيد ميلادي إلا قِلة قليلة من الأهل والأصدقاء. لا بأس، فالحدَث يخصُّني وحدي وعبور الحافة من عام إلى عام بصحبة الناس ليس دائمًا مصدر سعادة، أحيانًا يكون مجرد سند أو نفي للوحدة وأحيانًا أخرى يشبه «عزومة المراكبية»، يدعو صاحب عيد الميلاد الناس للعبور معه، وهو في الحقيقة يعرف أنه سيعبر وحده. شعرت بالفرق مرة، وأنا على حافة العشرين. كنت سعيدة بحق، وكأني انتصرت في معركة أو أثبتّ جدارتي بالحياة. بعد ذلك تشابهت الأعوام واختلطت المشاعر ولم يعد لعيد الميلاد نفس البريق.

بعد زواجي، أصبح لبعض الأعياد القومية ذكرى تخصني، خطبت في عيد الثورة الفرنسية (١٤ يوليو) وكتبت الكتاب في عيد العمال المصري، بعد الخطوبة بما يقرب من عام، وتزوجت في عيد الجلاء. كنا أنا وزوجي شابين متحمسين للحياة، وكنا أيضًا نلهو ونحب الحكايات. أردنا أن تكون لكل ذكرى حكاية وتاريخ وسبب ونهاية سعيدة. أن تكون حياتنا هي مجموع تلك الحكايات الصغيرة، والأعياد الخاصة، واللحظات المحملة بالأسباب والأماني وأيضًا بأوهام الانتماء إلى تاريخ أكبر وأعم. اليوم نتندَّر باختياراتنا، ونتردد في رواية ما جرى وما كان، لكني أول من يحكي لو سُئلت وأكثر من يحب إثارة الدهشة لدى السامعين، فيما يبتسم زوجي وهو يقول لحاله إنها أمور لا تخص أحدًا غيرنا. هي فعلًا مناسبات لا تخص غيرنا، والأهم منها كموضوع للحديث وللكتابة هو أعياد الجماعات وطقوسها المتنوعة.

في مصر، شم النسيم والمولد النبوي ليس لهما نفس بريق العيد الصغير والعيد الكبير، عيد الكعك وعيد الخروف كما كنا نسميهما ونحن صغار. أكره رائحة السمك المملح والبصل في شم النسيم كما أكره الذهاب إلى حديقة الحيوان بصحبة الخالات والأخوال وأبنائهم بسبب الزحام والتراب والروائح التي تصاحبهما. في المولد، أحب الفرجة على العرائس المصنوعة من الحلوى، لكنها كانت دائمًا من نصيب بنات غيري. كنا نكتفي في بيتنا بالحمصية والسمسمية والملبن ونظل نأكل من العُلبة الكرتون التي يشتريها أبي شهرًا أو يزيد بعد انتهاء المولد. العيدان الصغير والكبير يرتبطان بالملابس الجديدة، وصواني الكعك والغريِّبة العائدة على رأس الخادمة من الفرن، ورائحة الشِّواء صباح العيد (لماذا نفطر لحمًا في هذا اليوم تحديدًا؟ هل يا ترى كان إبراهيم ينوي ذبح ابنه في الصباح الباكر؟)، وتكبيرة العيد في الميدان، وزيارات الأقارب وأبنائهم، والعيدية التي نقف

طابورًا لاستلامها من أبي وأمي وجدتي وعمتي وآخرين.

منذ حضوري إلى كندا لم أعُد أحتفل بالعيدين الصغير والكبير كما كنت أفعل في مصر. يمر العيد بلا ضجيج وأحيانًا أكون في العمل ويكون الأولاد في المدرسة. نتحدث مع الأهل في مصر على الهاتف، نسمع أحيانًا صوت الضجيج الذي يحيط بمن نكلمه، أولاد وزحام ولغَطٍ. في كندا يتم اختزال الاحتفال ويصبح مجرد رمز أو ذكرى. نخرج مع الولدين إلى المطعم في اليوم الأول أو الثاني بحسب الظروف. الولدان لا يحصلان على ملابس جديدة للعيد لكنهما يرتديان أحسن الموجود ويحصلان على عيدية بالدولار الكندي. نصحبهما إلى مطعم يوناني مشهور بطبق اللحم الضاني والأرز البيلاف والسلاطة الخضراء بالجبن الفِيتا.

العيد الكبير الحقيقي بالنسبة لنا هنا هو عيد الكريسماس. لم نشترِ شجرة كريسماس قط، لكننا نحتفل بالعيد سنويًّا بشراء الهدايا ودعوة الأصدقاء وعمل ديك رومي وقبول دعوات هنا وهناك تستمر من الرابع والعشرين من ديسمبر حتى قرب نهاية الشهر.

المحلات تبدأ الاستعداد للكريسماس من منتصف شهر أكتوبر تقريبًا، يغلب على كل شيء اللونان الأحمر والأخضر والزينات الذهبية والفضية. تعلو أكوام علب الشوكولاتة في مداخل المحلات الكبيرة، تزين أشجار الكريسماس الهائلة ساحات المدينة والمولات، تُضاء الأشجار في الشوارع الرئيسية بأنوار بيضاء وزرقاء وحمراء، يتمنى الناس أن يكون الكريسماس أبيض هذا العام، فعندما تسقط الثلوج تحلو الجلسة مع الأهل حول نار المدفأة. أيام السبت والأحد تكتظ المحلات بالناس لشراء الهدايا، الكلُّ يُهدي الكلَّ هدية ما، صغيرة أو كبيرة، كارت معايدة أو سيارة، وردًا ونباتات زينة حمراء أو جهاز تلفزيون جديدًا ٤٢ بوصة... الهدايا والديك الرومي أساسيان في الكريسماس.

أحيانًا لا نجد من ندعوه إلى بيتنا، فالناس يقضون الكريسماس دائمًا مع أهلهم. ندعو أصدقاء مهاجرين مثلنا على العشاء، ونتخيَّل ونحن نلتفُّ حول المائدة أننا عائلة. في الحفلات التي نُدعى إليها، نجد بجوار طبق كل واحد من المدعوين هدية صغيرة يفتحها بعد تناول الطعام؛ كتاب طهي، أجندة العام الجديد، مج صيني، أقلام ملونة، وأحيانًا أشياء بلا فائدة، جادجتس! أما أهل البيت أصحاب الدعوة فلهم هدايا أكبر وأكثر، خصوصًا الأولاد. يحاول كل ضيف أن يخمن محتوى العلبة قبل فتحها، يضحك الناس عندما يفتحون علبة هائلة وثقيلة فيجدونها معبأة بالجرائد القديمة ويجدون في قاعها الهدية الصغيرة التي تقع من نصيبهم. صاحبة البيت تجد سوارًا ذهبيًّا ينتظرها في علبة تحتوي على حلة طهي كبيرة. صاحب البيت يعثر على كوفية من الحرير الطبيعي وجوارب من الصوف في كيس كبير مرسوم عليه بابا نويل سمين. الأولاد يحصلون على نصيب الأسد، عدد كبير من الهدايا من كل فرد يحضر العشاء ومن أقارب يعيشون في بلاد بعيدة أرسلوا هداياهم بالبريد.

هذا العام الفرق بين العيد الكبير والكريسماس أسبوعان فقط. بأية حال يعود العيد؟ ببهجة مقتنصَة من أشهر الانتظار، ببهجة نطلبها ولو في هذا الجحيم الأبيض.

بوليتيكا

قادت ستيفاني السيارة من مدينة «أوتاوا» الكندية إلى مدينة «بروك بورت» بولاية نيويورك. استغرق الطريق خمس ساعات. تقود بحذر وبتركيز وتغنِّي طوال الطريق. صوتها عذب. نِمت قليلًا واستيقظت عند الحدود. باسبور مصري وباسبور كندي. يسأل الضابط عن سبب الرحلة وتقول ستيفاني: إننا ذاهبتان للمشاركة في مؤتمر في جامعة سوني - بروك بورت. يسأل عن موضوع المؤتمر وتجيب ستيفاني: الاستشراق. يردد: الاستشراق؟! ثم يسأل إذا كان معنا هدايا، كحول، جثة ميت. نضحك ويبتسم الضابط. لا بد أنه يشعر بالملل. يتمنى أن يعثر يومًا على جثة، للتسلية.

بعد نحو ثلاث ساعات من الحدود الكندية الأمريكية، وصلنا منهكتين. أدركنا فورًا أننا في مدينة صغيرة. تعرف المدينة الصغيرة من اسم الشارع الرئيسي فيها: مين ستريت! معناها «الشارع الرئيسي». سكانها نحو خمسين ألف نسمة ومكوَّنة من عدد صغير من الأحياء والقرى. البيت الذي تُقيم فيه ستيفاني مع بقية طلاب الدكتوراه في منطقة تُدعى «السويد». سافر أحد الأساتذة وترك بيته للطلاب المشاركين في المؤتمر. الفندق الذي أقيم فيه وحدي قريب من الجامعة. فضلت البقاء في فندق للاحتفاظ بالمسافة، ولكي أترك الشباب على راحتهم.

قالت ستيفاني ونحن نمر أمام لافتة مكتوب عليها اسم القرية: إنها لم تذهب من قبل إلى شمال أوروبا والدول الإسكندنافية. كانت سعيدة بزيارة «السويد» هنا. بحثنا عن مطعم نباتي ولم نجد. ستيفاني نباتية، وأيضًا كندية يهودية علمانية. اشترينا سندوتشات تاكو بالفول والسلاطة. وواصلنا الطريق نحو الفندق.

استقبلَنا اثنان من المنظِّمين، كارل دافيلا أستاذ الدراسات العربية والأنثروبولوجيا بالجامعة وطالب ماجستير مهتم بالثقافة العربية اسمه بول. عرفت من بول أنه كان يعمل في شركة كوداك لمدة خمس وعشرين سنة، ثم ترك العمل وتفرغ للدراسة. أسس إيستمان كوداك، صاحب شركة الكاميرات ومعدات التصوير الشهيرة، مصنعه في «روتشيستر»، أقرب مدينة كبيرة لمنطقة الجامعة. قال بول عندما عرف أني مهتمة بتاريخ السينما: إن قصر كوداك تحول بعد وفاته إلى مُتحف يضم أرشيفًا هائلًا من الوثائق المصورة والكاميرات القديمة ومجموعة صغيرة من الأفلام النادرة جمعها من كافة أنحاء العالم. عرض بول مساعدتي في الاتصال بالمتحف والبحث عن صور وأفلام عربية قديمة. شكرته على اهتمامه.

بدأ المؤتمر في اليوم التالي. العنوان: ثنائية الشرق والغرب في القرن الواحد والعشرين: ثلاثون عامًا على كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق». من جامعة «أوتاوا»، شاركنا بجلسة عن مفهوم الجغرافيا المتخيلة وتطبيقاته النظرية في ثلاثة مجالات: الفكر والقانون والسينما. حركة الاستشراق

في أوروبا بداية من القرن الثامن عشر ارتبطت بالطموحات الإمبريالية البريطانية والفرنسية وأنتجت مؤسسات علمية هدفها تصوير الشرق (العربي، الإسلامي، الهندي، الصيني) بوصفه كِيانًا ثابتًا متشابهًا، فضلًا عن كونه متخلفًا لا يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه. بِنْية الاستشراق اليوم لم تتغير عن الأمس، الفرق في موازين القوى التي باتت تحكم العالم ممثلة في الإمبريالية الأمريكية التي حلَّت محل الإمبراطوريات القديمة الفرنسية والإنجليزية وانتمت فكريًّا وتاريخيًّا إلى الإمبراطورية الرومانية.

فكرة الجغرافيا المتخيلة فكرة بسيطة. أراد سعيد أن يعيد كتابة التاريخ ليس فقط من منظور الزمن، ولكن من منظور الصراع على الأرض وفرض الحدود بين «نحن» و«هم»، بين أرضنا وأرضهم. من الذي قرَّر وضع الحدود؟ ومن الذي يستطيع اليوم عبورها أو تجاهلها؟ وهل القوة والسلطة مشروطة بمقاومة تلك الحدود فكريًّا وعمليًّا؟ في نهاية المؤتمر، جلسة عامة ومائدة مستديرة. قال كارل دافيلا منظم المؤتمر إنه لا يخجل أن يعتبر نفسه مستشرقًا. وهاجمه البعض، باعتبار أن المصطلح بعد صدور كتاب إدوارد سعيد أصبح «تهمة». وصمت البعض الآخر فيما كشف صمتهم عن حيرة أو خوف أو شفقة. الأستاذات والطالبات صوتهن غير مسموع، يتحدثن قليلًا. يخجلن ربما في مواجهة الرجال بأصواتهم العالية ونبرتهم الجادة. يبدو كأنهم يريدون تغيير العالم في الجلسة الختامية.

شيئًا فشيئًا تحول النقاش إلى معركة سياسية. شاركت فيها قليلًا من باب المناوشة؛ ولأني تحديدًا أكره الكلام في السياسة. سألت ثلاثة أسئلة لإثارة الرجال ذوي الأصوات العالية والنبرة الجادة. لماذا لم تفرز الإمبراطورية العثمانية مثلاً مفاهيم مثل مفهوم الكوزموبوليتانية ومؤسسات مثل الاستشراق رغم أنها حركة إمبريالية مثلها مثل الحركتين البريطانية والفرنسية؟ ولماذا نصِرُّ كمثقفين وباحثين أننا سياسيون، وأننا ممثلون لغيرنا من عامة الشعب، وكأننا لا نعِي الفرق بين حرية الفكر السياسي ومحدودية العمل السياسي؟ ألا يعتبر هذا شكلًا من أشكال السعي للسلطة التي هاجمها سعيد في كتاباته متأثرًا بالفلسفة الحديثة بعد ميشيل فوكو؟ ثم لماذا لا نثق فيما يسميه سعيد «طاقات المقاومة»؟ تلك الطاقات التي استطاعت عبر التاريخ وبغض النظر عن الحكام والأنظمة، أن تستمر مشتعلة باعتبارها طاقات جماهيرية صامتة وفي نفس الوقت حية وخلاقة.

تستمد الإمبريالية الأوروبية والأمريكية جذورها الفكرية من الإمبراطورية الرومانية ومن الثقافة اليهودية المسيحية. يمكننا الإجابة عن جزء من السؤال الأول بقراءة كتاب أمين معلوف «الهويات القاتلة». مسألة التمثيل السياسي والسعي وراء السلطة هاجمها جان بودريار في كتابه «الأغلبية الصامتة» الذي يؤكد ببساطة أن السياسيين في وادٍ وعامة الشعب في واد آخر؛ لذلك فالطاقة الحقيقية التي علينا أن ننميها لدينا جميعًا هي طاقة المقاومة بكل أشكالها، ليس فقط المقاومة السياسية من نوعية «نموت نموت ويحيا الوطن»، ولكن المقاومة الفكرية والفنية والأخلاقية. كتاب

عالم الاجتماع ميشيل مافيزولي «زمن القبائل» يشير إلى تلك الطاقة الخلاقة الكامنة في الناس والتي تعينهم على البقاء خارج حدود العمل السياسي أو على الرغم منه.

ساد الصمت في القاعة بعد مداخلتي «الفرانكوفونية»، ثم علا الصراخ: كل شيء في الدنيا سياسة. قال الرجال: وكلنا سياسيون شئنا أم أبينا. قال أكثرهم حدة: ولأني أختلف مع التعميم ولا أرى أن السياسة كعمل وكفكر من شأنها أن تفسِّر كل شيء وأي شيء. ابتسمت ولم أرد. كان همي الأول أن أعبر عن صوت مختلف في خِضم التعميمات السائدة، حتى لو كان هذا الصوت مسموعًا ومهيمنًا على طريقته أيضًا في مناطق أخرى من العالم بعيدًا عن التيار الأنجلو ساكسوني. أمَا وقد سمِع الناس هذا الصوت، فلا بأس من العودة إلى الصمت والتأمل من جديد، وهما في اعتقادي أهم أدوات المشتغلين بالإنسانيات في مقابل جعجعة وإطناب المشتغلين بالعلوم السياسية.

في طريق العودة، نمت كثيرًا وحلمت أني أسير في صحراء نصفها رمل ونصفها ثلج، على حافة مخيفة بين الأمل واليأس.

يديش

أشعر دائمًا بالغربة في الاجتماعات الكبيرة؛ الندوات والمؤتمرات، الحفلات والأفراح، المهرجانات ومعارض الكتاب. خصوصًا لو كنت وحيدة، أو لو كنت بصحبة معارف لا تربطني بهم علاقة قديمة. الطاقة الكبيرة التي يشيعها الناس من حولهم في مثل هذه اللقاءات تُشعرني بالحزن، ربما لأني لا أستطيع دائمًا ملاحقة الحدَث، أو لأن الناس ينظرون إلي ويتوقعون مني نوعًا من المشاركة الفعالة لا أبدو قادرة عليه. أفضل عليها الاحتفالات الشعبية والزحمة أيام الأعياد في الشوارع لأني أشعر بالذوبان في الناس، وربما لأن الشعور بالغربة يتراجع لمصلحة الفرجة. في مثل تلك المناسبات لا أحد ينظر في وجهك حقًّا ويسألك: هل أنت سعيد؟ من حقِّك أن تكون بين البِينين، لن يحاسبك أحدٌ، فقط ستحملك طاقة الآخرين إلى حيث لا تعلم، إلى حيث يخفت إلحاح التوقعات ويعلو صوت الفوضى.

أما في الاجتماعات الصغيرة، فالحال تزداد سوءًا. أقول هذا بمناسبة اجتماع صغير ثقيل الظل حضرته منذ أيام في الجامعة. كنا نحو عشرين مترجمًا وباحثًا وأستاذًا نتحدث جميعًا عن الترجمة في كندا. المناضلون (حتى في مجال الترجمة ثَمَّة من يناضل!) يتهمون الجهات الرسمية بالاهتمام فقط بالترجمة من وإلى اللغتين الرسميتين، الإنجليزية والفرنسية. ويدعون للاهتمام بكل اللغات الأخرى التي يتحدثها المهاجرون، والمقصود هنا اللغات الأوروبية الأخرى مثل الإيطالية والإسبانية والألمانية والروسية. والحضور ينصتون ويهزون الرأس علامة التأفُّف أو الاستنكار.

دعيت لمناقشة فرعية تحت عنوان «الآخر الكندي»، وكان المشاركون تحت هذا الاسم ثلاثة، هم: أستاذ في الدراسات الكندية يهتم بالكُتّاب الكنديين الناطقين باليديش، وأستاذ في الدراسات الأمريكية اللاتينية يهتم بكُتّاب اللغتين الإسبانية والبرتغالية، وأنا باعتباري أستاذة الدراسات العربية الوحيدة بالجامعة. كلنا نمثِّل «الآخر الكندي» من وجهة نظر المنظِّمين.

تحدث أستاذ اليديش أولًا، كان يضع برنيطة سوداء غريبة أشبه بقبعة أمريكية من الأربعينيات، وكان طويلًا ممتلئًا بالثقة. تحدث بالفرنسية، بلَكْنة أهل كيبيك. استعرض تاريخ اليديش في كندا وقال: إن اللغة تموت لأن أحدًا لا يمارسها. قال ذلك بنفس الأسى ونفس نبرة النضال التي يتبعها عادة نداء تبرع لإنقاذ الأقلية وحفظ التاريخ.

أشار بعد ذلك إلى ثلاثة من الكُتَّاب المهاجرين الذين جاءوا إلى كندا عقب الحرب العالمية الأولى ونشروا أعمالهم باليديش. قال إنهم كانوا علمانيين مؤمنين بالصهيونية، لا يمارسون طقوس الدين اليهودي ولكنهم يساندون مبدأ الدولة اليهودية. عرض علينا صورة تجمعهم وعددًا آخر من أتباع الحركة الصهيونية الكندية. كلهم يرتدون ملابس أوروبية، رءوسهم حليقة، لا يرتدون قبعات سوداء كعادة المتدينين من اليهود، وكان بينهم عدد من السيدات. صورة من العشرينيات، لا أحد

يبتسم. لا بد أنهم ماتوا وعلى وجوههم نفس آيات الثقة والعزم.

ثم قرأ أبياتًا مترجمة من شعر أحدهم؛ شعر مكرَّر بلا طعم. يتحدث الشاعر عن الهجرة وعن مونتريال وعن الثلج، باليديش. فهمت أن أهميته التاريخية تكمن في كتابته بتلك اللغة في المقام الأول.

يؤمن البعض أن التاريخ عليه أن يحفظ كل ورقة، كل حرف، فحفظ التاريخ أسْمَى معالم الوجود الإنساني من وجهة نظر المؤرخ، وبخاصة حفظ تاريخ كندا الوليدة وتاريخ الأدب المكتوب في كندا، وهو أيضًا من الآداب الناشئة. هكذا تصبح العودة إلى أبعد نقطة ممكنة في هذا التاريخ مبررًا كافيًا للتفخيم والتعظيم المستمدين من الزمن، حتى لو كانت هذه النقطة على بعد مائة عام فقط من المتحدِّث.

لا بأس من تلك النظرة رغم محدوديتها. المشكلة تكمن في المرحلة التالية، مرحلة ما بعد الحفظ والأرشفة، حيث تكتسب المادة المكتوبة قيمتها من مجرد أنها حفظت من النسيان. الناس يتصورون أن كل كتابة حفظها التاريخ تستحق أن تعامل معاملة الكنز. ينسون أنها بذلك تستمد قيمتها من خارجها، من مجرد دأب شخص أو جماعة من المؤرخين للحفاظ عليها كأثر مكتوب، وليس من فنيتها وجمالها وخصوصيتها. ينسون أن الأرشيف في باطنه فوضى كبيرة وأنه يعد بفوضى أكبر كلما تقدم عمر البشرية، وتراكمت آثارها المدونة وغير المدونة.

اليديش لغة في سبيلها للانقراض. لا يستحق هذا أي أسى في رأيي. اللغات والحضارات تموت، وتلك أبسط ألعاب التاريخ. ظهرت هذه اللغة مع بدايات القرن الثاني عشر ولكنها بعد عمر قصير تكاد تندثر، لا يريد التحدث بها أو تعلمها سوى عدد ضئيل من العجائز والباحثين المهتمين باللغات القديمة. واليديش لغة ذات خصوصية مثيرة للتأمل، فهي مزيج من اللهجات الألمانية والعبرية، وتُكتب بحروف عبرية. يعتبرها البعض لغة شعبية ثورية؛ لأنها تناهض اللغة التوراتية، فقد سمحت ترجمة التوراة لليديش بأن تقرأ النساء اليهوديات الكتاب المقدس الذي منعن من قراءته بالعبرية لأسباب دينية جوهرها فكرة التعصب اليهودي ضد المرأة.

لم يستخدم اليديش سوى عدد محدود من الكُتَّاب والشعراء من الطبقات الشعبية والعمالية، ولم يزدهر الأدب بحق إلا في نهايات القرن التاسع عشر، كما ازدهر معه المسرح الشعبي المكتوب بتلك اللغة وقليل من الأفلام التي تزامن تاريخ إنتاجها مع بداية الثلاثينيات. أعظم من استغل تراث اليديش في الكتابة هو الكاتب التشيكي فرانتز كافكا. كان يكتب بالألمانية المطعَّمة باليديش، بلغة قال عنها جيل دولوز إنها لغة صغيرة، لغة أقلية، ورأى أن هذا تحديدًا مكمن ثوريتها. فيما عدا ذلك، كتابة محلية مغرقة في محليتها، كما يظهر بوضوح من الترجمات المتاحة للكُتاب اليديش.

بعد مداخلة كل منَّا في جلسة «الآخر الكندي»، سألني أستاذ اليديش سؤالاً، أراد أن ينتزع مني اعترافًا بأهمية حفظ التراث اليديش الكندي المتمثل في عدد هزيل من الكُتاب متوسطي القيمة. سأل

بابتسامة متذاكية: هل الكُتاب الكنديون الذين يكتبون بالعربية يعتبرون أنفسهم منتمين إلى الأدب الكندي مثل كتاب اليديش؟ أجبتُ بالنفي. قلتُ: إن معظم هؤلاء الكُتاب لا يهمهم الانتماء القومي إلا في المقام الثاني، فقيمة الكتابة تعلو على قيمة الانتماء المحلي. فرح الأستاذ ذو البرنيطة السوداء واطمأن قلبه؛ لأن العرب لن ينافسوه في طلب التبرعات. فيما التفت نحوي أستاذ الأدب الأمريكي اللاتيني وابتسم بلا تعليقٍ.

المدينة الزرقاء

شاركت عدة مرات في المهرجان الأدبي السنوي لمدينة مونتريال «بلو متروبوليس» (المدينة الزرقاء) عادة، يدعو المنظِّمون الكنديون الكاتباتِ «المغتربات» من حين لآخر لمحاكمتهن واستجوابهن سواء فيما يتعلق بدورهن في الحركة النسوية لإنقاذ النساء العربيات والمسلمات من الظلم والتبعية، أو فيما يتعلق بهُويتهن القومية واللغوية (الفرانكوفونية تحديدًا في سياق مقاطعة كيبيك الفرنسية). في كافة الأحوال، تتحدد هوية الكاتبات من أصول عربية وفقًا للمنظومة النسوية أو القومية وليس وفقًا لهويتهن ككاتبات.

يكرم المهرجان سنويًّا كاتبًا عالميًّا على مجمل أعماله، تضم قائمة المكرمين مارجريت أتوود، وكارلوس فوينتس، وبول أوستر، وماريز كونديه، وغيرهم ممن يتقنون اللغتين الإنجليزية والفرنسية -اللغتين الرسميتين لكندا- ومن لمعت أسماؤهم ونشرت أعمالهم بهاتين اللغتين. هذا العام اختار المهرجان الكاتبة البريطانية أنطونيا سوزن بيات، التي برز اسمها في بداية التسعينيات عندما حصلت روايتها «امتلاك» على جائزة البوكر. نشرت «بيات» نحو عشرين رواية وقصة، والمعروف أنها تمزج الإشارات التاريخية والفلسفية في كتاباتها مع الاهتمام بالعلوم البيولوجية، خصوصًا في روايات مثل «عن الملائكة والحشرات» و«برج بابل» و«امرأة تصفر».

للعام الثالث على التوالي تُخصَّص جائزة سنوية لكاتب عربي، هي «جائزة الماجدي بن ظاهر - بلو متروبوليس» التي تهديها مؤسسة الماجدي بن ظاهر للثقافة والتراث سنويًّا لكاتب عربي أثبت مكانته الأدبية دوليًّا ومحليًّا. حصل عليها هذا العام الكاتب السوري زكريا تامر، فيما حصل عليها سعدي يوسف وإلياس خوري سابقًا. التقيت زكريا تامر في أروقة المهرجان منذ أيام وذهبت أحييه على الجائزة فوجدته يتذكرني ويتذكر لقاءً جمعنا منذ ما يزيد على ثماني سنوات في مدينة فرانكفورت... قال إنه يتذكر خلافاتنا حول معنى الأدب ودور الكاتب، وإنه يتذكر تحالفي مع الكاتب اللبناني رشيد الضعيف ضده، وإنه لا ينسى شيئًا على الإطلاق، وسألني متمنيًا أن أوافق إن كنت أريده أن يكرر ما قلته حرفيًّا...

بدا لوهلة أن عتابه سيتخذ شكلَ «صراع الأجيال»، تلك المعركة القديمة التي يُطالب فيها الكتاب المُخضرِمون الكتابَ الشباب بالاعتراف (مرة أخرى) بعلاقة البنوة... ولأني لم أعد تلك «الكاتبة الشابة» ولأني لا أهوى الصراعات الأبوية، وجَدتُّني بدلًا من الاعتراف الذي يبدو أني لم أقدمه له مع كامل احترامي في تلك الندوة البعيدة في ألمانيا، أقول له بلهجة مُداعبةٍ: أنا أفضِّل أن تنساني! ضحك الحضور وانتهت لعبة أرشيف الذكريات كما بدأت بابتسامات صفراء وعدم ارتياح متبادل. هو كاتب «يتذكر كل شيء» ويحتفظ لزملاء المهنة بأرشيف معلوماتي هائل، وأنا من جيل آخر؛ جيل ينسى ويعيد رواية الحكايات من قلب النسيان، بشك وحيرة يتجددان كل مرة.

جاء لقائي هذا عقب ندوة أدرتُها في إطار تكريم المهرجان لشعر وذكرى محمود درويش. اشترك في هذه الندوة الأستاذ الجامعي والناقد الكبير عيسى بلاطة، والروائي العراقي الأصل نعيم قطان، والشاعران جون عصفور وجورج بوحساب. كنا خمسة من المهاجرين العرب المقيمين في كندا، والحضور يتعدى مائتي شخصٍ نصفهم من العرب، والمداخلات بالفرنسية والإنجليزية، أما القراءات الشعرية فباللغات الثلاث؛ العربية والفرنسية أو الإنجليزية.

كنت أقرأ قصيدة «جندي يحلُم بالزنابق البيضاء» لدرويش، وتقوم على حوار بين محمود وجندي إسرائيلي. يسأل محمود الجندي أن يصف له قتيلًا واحدًا فيقول: «كخيمة هوى على الحصى... وعانق الكواكب المحطَّمة... كان على جبينه الواسع تاج من دم... وصدره بدون أوسمة...». وعندما وصلت إلى المقطع الذي يسأل فيه محمود الجندي الإسرائيلي إن كانا سيلتقيان ثانية، توقفت عن القراءة لمدة بدت لي كأنها الدهر كله: «أجاب في مدينة بعيدة... حين ملأت كأسه الرابع.. قلت مازحًا: ترحل.. والوطن؟ أجاب: دَعْني.. إنني أحلم بالزنابق البيضاء... بشارع مغرد ومنزل مضاء... أريد قلبًا طيبًا، لا حشو بندقية... أريد يومًا مشمسًا، لا لحظة انتصار.. مجنونة.. فاشية... أريد طفلًا باسمًا يضحك للنهار... لا قطعة في آلة حربية...».

لا أدري لماذا لم تخرج الكلمات من فمي. قرأت السطر الذي يقول: «أريد قلبًا طيبًا، لا حشو بندقية...» وتوقفت. كنت قد قرأت القصائد في البيت عدة مرات لضبط التشكيل والإيقاع، وكنت كلما وصلت إلى هذا السطر وما يليه أخْتَنق بالدموع. ولكني كنت مطمئنة؛ لأن هذا لن يحدث أمام الجمهور، ما دامت شحنة الأسى قد خرجت في السر. لكني مرة أخرى أمام كل العيون توقفت، وأدرك الناس بعد وهلة أني لا أستطيع التنفس. الكلمات لا تخرج والناس أنظارهم معلَّقة بي، ولا أقوى حتى على الاعتذار... لو فتحت فمي، سأبكي وستكون الفضيحة!

جون عصفور، وهو شاعر ومترجم لدرويش، كان أول من خمن ما يحدث، رغم أنه ضرير، فصفَّق. وتبعه الناس في القاعة، أدرت ظهري للجمهور ونفثت بعمق في الهواء ثم أكملت القراءة بصوت متهدِّجٍ، لحسن الحظ لم تبق سوى عدة سطور لتنتهي القصيدة. ثم اعتذرت للناس وقرأت الترجمة الفرنسية بلا مشكلات، وبلا تأثر، وصفَّق الناس كثيرًا بعد ذلك. قال شابٌّ جاء يحيِّني بعد انتهاء الندوة: إنه بكى ولم يكن يظن أن يبكي يومًا لوصف جندي إسرائيلي. وقالت سيدة: إنها لم تستطع حبس دموعها؛ لأنها أدركت أن الإنسان كائن بسيط مهما كانت وحشيته.

تخيلت درويش نفسه وهو يُلقي قصيدته على الناس. تخيلته وهو يختتم القصيدة بصوته وأدائه المؤثرين اللذين عرف بهما في أقطاب العالم العربي كله، وهو يردد: «ودعني؛ لأنه يبحث عن زنابق بيضاء... عن طائر يستقبل الصباح... فوق غصن زيتون... لأنه لا يفهم الأشياء... إلا كما يحسها، يشمها... يفهم -قال لي- إن الوطن... أن أحتسي قهوة أمي... أن أعود آمنًا في المساء» فإذا بذلك الوحش الكاسر، القاتل الأجير، الجندي الذي لا يعرف للحزن مكانًا في جبهة القتال، يتحول

إلى كائن، إنسان، مثله مثل درويش نفسه، تنطبق عليه نفس المفردات التي يستخدمها الشاعر للتعبير عن عشقه لقهوة أمه أو حلمه بالزنابق البيضاء. لم أكن أتوقع أن تثير هذه القصيدة رد الفعل هذا، وكرِهت أن يتوقف الناس عند مجرد اعتبار الجندي الإسرائيلي إنسانًا كغيره من البشر، فهذا ليس سوى سطح المعنى. كان ما أثار شَجَني وحزني غير ذلك، سببه رفضي البسيط لكل الحروب، الغاصبة والشرعية، وسببه تلك المفردات الكلاسيكية في شعر درويش التي باتت من أيقونات الشعر العالمي، قهوة وزنابق بيضاء في مقابل مرارة الحرب وخرابها.

عندما فتحت كُتيِّب المهرجان فيما بعد، وجدت إعلانًا باللغة العربية عن ندوة درويش وعن جائزة زكريا تامر، جنبًا إلى جنب مع نص الإعلان الفرنسي والإنجليزي. شعرت بفخر خاص كأن الإعلان بالعربية اعتراف بوجودي أنا شخصيًّا. فكرت، قد يكون الوطن كما يقول عنه درويش، أن أعود آمنة في المساء! وقد تكون إشارات اللغة جسرًا لي مع وإلى ومن داخل الوطن الجديد... ربما أصبحت كندا بالنسبة لي وطنًا... الآن.

سانت أرمان

مخزن الغلال المهجور ارتفاعه نحو طابقين. من شُرفة الطابق الثاني في البيت المقابل، يبدو المخزن مثل بيت تسكنه الأشباح؛ أشباح حيوانات المزرعة، خفافيش، حشرات، زواحف، سناجب... تتكدَّس أرواحها هناك، خلف زجاج نافذة مكسور أو تحت سقف مثقوب تغطيه شِباكُ العنكبوت. المخزن يبعد عن شرفتي نحو عشرين مترًا، ربما يتعذر النوم الليلة لو انطلقت الأشباح من مكمنها وحامت حول نافذتي. البيت مكوَّن من طابَقيْن؛ ثلاث غرف للنوم، شُرفة مغطاة (يسمونها سولاريوم) لاقتناص الشمس في أشهر الشتاء القارس تصلح للقراءة والاسترخاء، غرفة طعام فيها مدفأة، تعلو المدفأة لوحة زيتية كبيرة لأجمل ثعلبٍ رأيته في حياتي، غرفة مكتب بها مكتبة عتيقة ومقاعد وثِيرَة من الجلد، مطبخ فسيح يفتح بابه الخارجي على شرفة خلفية تطل على مخزن الغلال.

يقع البيت على بُعد ساعة بالسيارة من «مونتريال»، وثلاث ساعات من مدينة «أوتاوا»، في الريف المتاخم للحدود الجنوبية مع أمريكا. دأبت على زيارة هذا البيت في السنوات الأخيرة، هذه المرة أزوره بصُحبة صاحبه، وهو فرنسي المولد يقيم في كندا منذ أربعين عامًا. بعد التقاعد أصبح يقضي في هذا البيت معظم أيام السنة؛ يقرأ، يمشي يوميًّا، يكتب أحيانًا، يدعو الأصحاب دائمًا، يُعد طعامًا بسيطًا وشهيًّا، يتحدث وهو يتناول الطعام، ولا تخلو مائدته من أفضل أنواع النبيذ المصنوع في القُرى المجاورة. يتحدث عن تأثير شوبنهاور على كتاب القرن التاسع عشر، أو عن كتاب الحوارات بين جوتة وأكرمان، معلقًا بلا تردد أن أكرمان أبله، ثم يشير إلى كتاب متَرجَم بالفرنسية لقصائد محمود درويش موضوع ضمن رصة كتب على مائدة المطبخ، ويتساءل دون أن يتوقع إجابة، لماذا لدرويش كل هذا الحضور الفرنسي في مقابل التجاهل البريطاني والأمريكي. يتحدث أيضًا عن ضرورة إصلاح أرضية الشرفة الخشبية في الدور الأرضي، وعن اعتماده الدائم على المياه الجوفية التي يضخها من بئر في البدروم. باختصار، يحيا بلا صخبٍ، يحيا للداخل، في الداخل.

وضعت حقيبة السفر في الغرفة التي خصَّصها لي صديقنا ووقفت أتأمل مخزن الغلال المهجور تاركة نفسي نهبًا للمخاوف. الريح تلعب لعبتها أيضًا، تحمل أصواتًا غامضة من المزرعة المجاورة، تلك التي تبعد كيلومتر أو يزيد عن مزرعتنا. الخامسة مساءً، الأمطار كفت عن الهطول، والشرفة المفتوحة على الجهة الغربية تُطل إلى اليسار على ثلاث شجرات تظلل مدخل المخزن وتكاد ذؤاباتها تعلو لمستوى السقف، وتطل فضلًا عن ذلك على سهل صغير تتناثر فيه الأشجار بلا انتظام ويمتد بامتداد الأفق. الأوراق لم تغطِّ الأشجار بالكامل، لونها اليانع يَشِي بأنها حديثة الولادة، نبتت منذ أقل من شهر. لذلك عندما تهبط شمس الخامسة مساءً على العشب

والأشجار والنباتات البرية يكتسب اللون الأخضر لمعانًا غريبًا. ما زالت هناك فتحات كثيرة بين الأغصان لم تغطِّها الأوراق بعدُ، تخلف مساحات متباينة من الظلال والضوء. هي بداية مايو. الخفة لا الكثافة، الضوء الناعس لا الضوء الساطع.

الغيوم لا تبقى على حال، تدفعها الريح في الجهات كلها، تشتتها تارة وتجمعها تارة أخرى. أما الشمس فتتردد كثيرًا قبل أن تبوح بسرِّ الصيف كاملًا. رطوبة وهواء بارد ودرجات من الرمادي والأبيض والسماوي تزيد من لمعان الأخضر السائد. تناولنا طعامًا خفيفًا؛ طبقًا من الفُلْفل الأحمر والأصفر المشوي بزيت الزيتون، طماطم مهروسة على نار هادئة مضافًا إليها الفُلفل الأسود والكُركم وزيت الزيتون، شرائح من سمك السلمون المخلل بالليمون والصنوْبَر والمنقوع في زيت الزيتون، عيش ريفي من القمح الأسمر بالمكسرات وعين الجمل، نبيذ أبيض مثلج، والحلوى فطيرة توت بري صُنعت عجينتها بزيت الزيتون... أيضًا.

بعد الطعام خرجنا للنزهة. البيت يقع على شارع القرية الرئيسي الذي يحمل نفس اسم القرية ويبعد عن القرية أقل من كيلومتر. تتوسط القرية مدرسة من طابقين؛ فناؤها مفتوح بلا أسوار، وكنيسة ذات برج فضي وبوابة خشبية هائلة، وعدد من المنازل تمثِّل مركز القرية الحي. فيما عدا ذلك مزارع ممتدة وتلال وغابات تتوسط المزارع، ومعامل ألبان وبيوت متناثرة وحظائر ورائحة طين مبتلٍّ وأشجار عتيقة وبقايا أسراب طيور مهاجرة تَنعِق مثل الغِربان. في وسط كل هذا طرق أسفلتية صاعدة هابطة. سرنا نحو ساعة كاملة لم تقابلنا سوى سيارة واحدة على طريق القرية الرئيسي. قال صديقنا فجأة إنه لا يحب الشعراء الرومانسيين أمثال مالارميه وشاتوبريان. قال: إن الطبيعة ليست بِكْرًا كما يتخيلها هؤلاء الشعراء، وليس لها وجود دون تدخُّل الإنسان. قال: إنهم أفسدوها عندما أسقطوا عليها مشاعرهم وأحلامهم. لم أعلق كثيرًا على تعليقه، كنت أريد أن أنصت وأشم وأرى وأحس، فضلًا عن أني لم أقرأ سوى النَّزْر اليسير للرومانسيين، وما قرأته لم يترك علامة في ذاكرتي.

فكرت أننا نشبه أبطال فيلم بونويل «سحر البرجوازية الخفي» وهم يسيرون بلا وِجْهة معلومة على طريق يشبه هذا الطريق، بخط أصفر في منتصفه. لكني لم أذكر صديقي بالفيلم. خفت أن أكون قد علّقت هذا التعليق في زيارة سابقة، في نزهة شبيهة بنزهة اليوم. وخفت أكثر حين لمحت فيما يحدث لي ومن حولي شبهة ادعاء برجوازي جدير بسخرية بونويل شخصيًّا، بدءًا من قضاء العطلة في منزل ريفي وانتهاءً بتقييم التجربة الرومانسية في القرن التاسع عشر. فكَّرت أن الإنسان لا يولد طبقيًّا، ولا يشعر دائمًا بالانتماء إلى الطبقة التي يولد فيها، لكنّ نشاطًا نخبويًّا مثل القراءة ومشاهدة أمثال بونويل أصبح مؤشرًا طبقيًّا يقع ضمن نمط تفكير ونمط حياة مشكوك في نزاهتهما. ولأن العلاقة بين ثقافة الأقلية والطبقة البرجوازية مسألة شائكة لا سبيل لحلها في سانت أرمان، فقد هبط علي صمت مفاجئ ونحن في طريق العودة إلى البيت. عند وصولنا، كان مخزن الغلال

المهجور واقفًا في انتظاري، غاصًّا بأشباح حيوانات أليفة، لا تشبه أشباحًا وهواجس أخرى لم أفلح في التخلص منها نهائيًّا.

قضينا عطلة نهاية الأسبوع مع بعض الأصدقاء. بدأ اليوم بداية طيبة بلا أمطار. كنا نخاف من الأمطار الصيفية، تلك التي تمنع الناس من الخروج وتجعلهم يشعرون بحالة من التراخي والنُّعاس، تحضهم على التوقف عن الحركة وربما أيضا الاستسلام لسخف البرامج التلفزيونية في أثناء النهار. الأمطار رفيعة وكثيفة، تَهبِط أحيانًا متفرقة أشبه بالأبخرة وأحيانًا أخرى تتجمع في صورة خيوط شبه متصلة مثل الدوش. طوال الصيف والخريف تهبط الأمطار على كندا، وعندما تهبط بغزارة يبقى الناس في البيوت وتتعطل الطرق الرئيسية في حالة العواصف المطيرة. الناس تعوَّدوا مراجعة نشرة الأخبار الجوية يوميًّا. قبل بداية العطلة قال أحد الأصدقاء إن اليوم الأول سيكون مطيرًا، وكدنا نلغي مشروع الرحلة إلى الريف لولا أن صديقتنا صاحبة الدعوة أصرت وراحت تذكرنا بتقلُّب الجو المستمر واحتمالات الخطأ التي تقع فيها دائمًا الأرصاد الجوية.

عند وصولنا إلى البيت، فوجئنا بالشمس تتسلَّل من بين السحب وتنشر ضوءها على الحقول ومزارع العنب المحيطة. ومعها تسللت البهجة إلى نفوسنا وفقدنا إلى حين ثقتنا في النشرة الجوية وهنأنا أنفسنا. في اليوم التالي غابت الشمس تمامًا وانتشر الضباب واختفت الغابة القريبة عن أنظارنا، حتى لم يبقَ في الأفق سوى أشباح أشجار الزيزفون التي تقف ساكنة عند مدخل البيت.

قضينا اليوم الأول للعطلة خارج البيت، واليوم التالي داخله. لم نتوقف عن الكلام. أكلنا في الخارج أيضًا؛ أجمل طبق حِمَّص بالثوم من عمل صديقتنا الفلسطينية الأصل، كوسة مشوية، لحم وبطاطس وسلاطة خضراء ونبيذ أحمر. كنا خمسة؛ أربعة من أصل عربي وواحد من أصل فرنسي. نتحدث بالفرنسية والإنجليزية ونَحِنُّ أحيانًا إلى الحديث بالعربية فينصت صديقنا الفرنسي وهو يضع يديه في جيوبه، مستسلمًا لموسيقى لغة لا يفهمها لكنه يرى سعادتنا عندما نتحدث بها فلا يلومنا. يمر الوقت ولا يتوقف الحديث، فالطعام طيب، والحديث أطيب. بعد الطعام نستسلم للنوم، قيلولة ما بعد الحِمَّصِ بالثوم من ألذِّ أنواع القيلولة. بعدها ننتقل إلى غرفة المكتب حيث يبدأ حديث من نوع آخر، على رائحة القهوة وضوء الأباجورات الخافت.

بدأ صديقنا الفرنسي يتحدث عن ولعه بالشاعر جيرار دو نرفال. كان حديثه ملائمًا لروح الليل الساكن ولتلك اللحظة الفريدة التي يبدأ فيها انطلاق الهواجس والأحلام من محبسها إلى فضاء الريف الفسيح. قرأ علينا مشاهد من زيارة نرفال للقاهرة وتعليقاته على الحياة في مصر في منتصف القرن التاسع عشر، فقرتين منفصلتين؛ إحداهما مقتطعة من رسالة لصديقه تيوفيل جوتييه يثنيه فيها عن زيارة القاهرة، ويصف فوضى الحياة في الشرق وإحباطه الشخصي من إقامته في مدينة بلا ملامح، هي خليط من البؤس والفوضى. والفقرة الثانية كتبها بعد تلك الزيارة بعدة سنوات وفيها يُعيد خلق القاهرة من أحلامه ومن قراءاته، فتكتسب ملامحها صبغة شعرية لا علاقة لها

بالواقع، لكنها تجسِّد حُلم الكاتب الشرقي، ذلك الحلم الذي ينتقده إدوارد سعيد في كتابه عن الاستشراق من وجهة النظر السياسية باعتباره شكلًا من أشكال الاستعمار.

استطرد صديقنا قائلًا إن أعمال هذا الشاعر العجيب هي أصل التراث السوريالي في الأدب الحديث، وإن شعره أسس لتراث كامل من الكتابة من داخل عالم الأحلام، وإن ما خلَّفه من شعر غير مسبوق في الآداب الأوروبية. قال أيضًا إن نرفال انتحر قبيل الخمسين، وكانت آخر جملة كتبها في رسالة لخالته: الليل إما أبيض وإما أسود. حل علينا جميعًا الصمت وابتسمت للفكرة؛ فكرة أن يكون للموت لون غير اللون الأسود. لم يعرف أحد لماذا انتحر نرفال فعليًّا. شنق نفسه. حكى صديقنا أيضًا أن نرفال ترجم فاوست جوتة من الألمانية إلى الفرنسية وهو بعدُ في الثامنة عشرة من عمره، وأن أحد المتخصصين في أعمال جوتة اعترف فيما بعد أنه يفضل الترجمة الفرنسية على الأصل. علمًا بأنه في تلك الفترة لم يكن يتحدث الألمانية وإنما يقرؤها فقط. وكأن الحدس في الترجمة أسبق وأهم من المعرفة.

كان صديقنا موسوعيًّا وكان حديثه جذابًا مشوقًا؛ لأنه لا يعرف فقط النصوص لكنه يعرف حياة الكاتب ويقرأ رسائله وكتابات المعاصرين له ويشتري الطبعات الحديثة لكتبه، خصوصًا تلك التي تتوفر فيها الشروح والهوامش، مثل طبعات «لابلياد» الشهيرة ذات الأوراق الرفيعة كأوراق السجائر. كان هذا الصديق يعمل مهندسًا في الماضي، لكنه لم يكف يومًا عن القراءة، والآن -وقد تقاعد وأصبح الوقت متاحًا للقراءة دون منازع- راح يعيد قراءة الأعمال الأدبية الكلاسيكية وتاريخ الأمم والشعوب وفلسفة القرنين التاسع عشر والعشرين، ويتحدث عن كل هذا بلغة وسيطة لا تخلو من جمال ولا تفتقد وضوح وعمق المعرفة النقدية.

سهرة ممتعة بصحبة نرفال! وأحلام تملأ نومي بعد ذلك، أشعر فيها تارة بالخفة والفرح وأحيانًا أخرى بالأسى والملانكوليا (ليست هناك ترجمة عربية سليمة لهذه الكلمة، اللهم إلا الشَّجَن، أو الحُزن الخفيف، غير المفهوم). كان طبيعيًّا أن أصحو في اليوم التالي فأجد السماء ملبَّدة بالغيوم، والغيوم تنذر بالمطر. كان ظل نرفال ما زال يُخيِّم علينا، لكننا في ذلك اليوم قاومنا الملانكوليا بأشكال مختلفة، كلٌّ منا على طريقته. وبينما كانت صديقتنا الفلسطينية تُعد صحنًا جديدًا من الحمص بزيت الزيتون الصافي والثوم والطحينة، كنت أنا أتأمل مشهد الأشجار تحت المطر من خلف النافذة وأتمنى لو أتقاعد عن العمل فقط لأقرأ الأعمال الكاملة لكلِّ هؤلاء الكُتاب العظام الذين فاتتني قراءتهم.

المستحيل

أشعر بخِفَّة وكسَلٍ منذ أيام، منذ أشرقت الشمس بقوة، وذاب الثلج أو كاد. الشمس تذكِّرني بمصر وحديقة البيت الخلفية تفوح برائحة النيل والطمي والأعشاب النامية. كل شيء يوحي بطراوة الأيام الخوالي، وكل مكان ذابت عنه الثلوج يحمل وعدًا باستعادة الزمن الضائع. الناس يستعدون للصيف وكأنهم في حرب مع الزمن، ينتقمون من الشتاء الطويل فيما يشبه الطقس الموسمي. ينتقمون من الأبيض والأسود والرمادي بدفقة من الألوان البراقة. شورتات وفساتين وورود وبسكليتات ملونة. مقاهٍ تفتح نوافذها وأبوابها وتطلق روّادها على الأرصفة. مهرجانات تعلن عن نفسها بمُلصقات لامعة. في كل مكان بهجة، وتراخٍ.

ذهبت صباح يوم العطلة لبلوك بستر، أكبر نادي فيديو في كندا، استأجرت أربعة أفلام حديثة نسبيًّا، مضت على إنتاجها عِدَّة سنوات. شاهدت أحدها في مساء اليوم نفسه، كوميديا بريطانية عن أم تعود إلى بيت ابنتها بعد غياب طويل لتبدأ سلسلة من جرائم القتل بهدف تخليص ابنتها ممن يضايقونها، بدايةً من كلب الجيران الذي ينبح ليل نهار، ومرورًا بعشيق الابنة الخائن والجارة العجوز التي تتلصَّص على الابنة وعشيقها والجار المزعج صاحب الكلب القتيل. الفيلم إنتاج ٢٠٠٥ وعنوانه «الحق ماما!». تقوم بدور الأم الممثلة البريطانية ماجي سميث بوجهها الذي يشبه وجوه الجدات الطيِّبات وابتسامتها الماكرة. كوميديا لاذعة على طريقة هيتشكوك ولكن دون عبقرية المعلم. لا بأس!

في المساء التالي لم أستطع النوم بسهولة. في نهاية يوم عطلة جديد، أجلس في الفراش وأفكر في أحداث اليوم. لم أفلح في عمل شيء سوى «البحلقة» في السقف وتأمل الأثاث. تنقلت بين الغرف، أعددت كوب كاموميل ساخنًا، أكلت وجبات خفيفة، قرأت قليلًا وحلمت كثيرًا. من أحلام اليقظة تحتل صور زيارتي السنوية لمصر محل الصدارة. أُعد نفسي لسلسلةٍ من الزيارات والمشاريع الطموحة لا أُحقق عادة سوى نصفها. لكنها عادة ما تكون أحلامًا غائمة وأحيانًا مضطربة ومخيفة.

الواحدة صباحًا بلا نوم. الفيلم الثاني فيلم روبرتو بنيني «النمر والثلج» إنتاج ٢٠٠٥ أيضًا. يبدأ الفيلم قبل التيترات بمشهدٍ يُحاكي فلليني. في مبنى روماني متهدِّم يشكل نصف دائرة، في ليلة مُقمرة يغلب عليها الأزرق الداكن، حفل زفاف ومدعوون يجلسون على جانبي ممر طويل، على أرض عُشبية خضراء. يدخل البطل (الممثل والمخرج روبيرتو بنيني) من باب عالٍ في الجدار مرتديًا ملابس داخلية بيضاء وحذاء أسود. يتلفت حوله وكأنه لا يعرف سببَ وجوده في هذا الحفل. يتقدم وسط المدعوين فيما نشاهد صورًا من الأرشيف لبورخيس وأونجاريتي وغيرهما من كبار الشعراء يبتسمون للكاميرا. يدعوه القُسُّ أن يتقدم من المَذْبح.

من نفس الباب العالي الذي يدخل منه البطل تدخل العروس بملابسها البيضاء وحركتها الوئيدة. تتقدم صوب المذبح وتُلقى على روبيرتو أبياتًا من الشعر في الحب ليس لها مثيل في عذوبتها، تلقيها كما يُلقي أبطال بازوليني جمل الحوار في أفلامه الكلاسيكية. في المقابل تتأكد روح الكوميديا من التناقض التام بين ملابس وهيئة بنيني المضحكة وبين أبيات الشعر التي تلقيها سيدة الحلم الجميلة.

بعد تلك المقدمة الفانتازية، نعرف أن البطل شاعر اسمه أتيليو، منفصل عن زوجته ويحلُم كل ليلة بنفس المرأة، فيكتوريا. في لقاء شعري مع «فؤاد» الشاعر العراقي المرشح لجائزة نوبل، يلتقي أتيليو بسيدة الحلم وجهًا لوجهٍ. فيكتوريا تعمل مترجمة من العربية إلى الإيطالية، وهي صديقة لفؤاد. يتبعها أتيليو على الفور لنكتشف أنه في الحقيقة يتبعها منذ سنوات وأنها تعرفه وتعرف إلحاحه وتدبِّر له المقالبَ لتتخلص منه دائمًا.

ذات مساء، يصحو أتيليو من حلم الزفاف المعتاد على رنين الهاتف. فيكتوريا التي سافرت إلى العراق مع صديقها فؤاد لاستكمال العمل على ترجمة أعماله أُصيبت في حادث انفجار. يكاد أتيليو يتوقف عن التنفُّس. من روما ينطلق إلى بغداد مدعيًا أنه طبيب يعمل في الصليب الأحمر. ومن مغامرة إلى مغامرة، يحاول إنقاذ فيكتوريا. هي محكوم عليها بالموت بسبب نقص الأدوية وبسبب الغزو الأمريكي للعراق، وهو لا تنقصه الحيل.

بعد سلسلة من المغامرات يختلط فيها الكوميدي بالسياسي، تحدث المعجزة وتصحو فيكتوريا من الغيبوبة. لكن أتيليو يقع في أسر القوات الأمريكية قبل أن يراها ولا تعرف هي سوى أن طبيبًا إيطاليًّا أنقذها بمعجزة من موت محقَّق. بعد فترة، في روما، في زيارة لابنتيه ولبيت زوجته التي لا نعرف من هي، تظهر الحقيقة ببساطة. فيكتوريا هي زوجة أتيليو السابقة. كل هذا الحب، كل هذه الأحلام، كل هذا العشق المجنون الذي تتوقف عند حدوده الرغبة في الحياة، كل هذه المغامرات الصاخبة التي يحياها أتيليو بين حدّي الواقع والفانتازيا ويصنع منها شعره، كل هذه الطاقة التي يشيعها من حوله بعنف وجرأة، يضعها عند قدمي زوجته، حبه الوحيد، سيدة الحلم.

في آخر مشهد في الفيلم، تغفو فيكتوريا على مقعد في الحديقة، ينحني أتيليو ليقبلها على وجنتها، سلسلة فيكتوريا الذهبية التي فقدتها في العراق تتدلى من عنقه وتلمس خدَّها. يمضي أتيليو وتصحو فيكتوريا غير مُصدِّقة. تراه يغادر البيت وتبتسم بحنان. تعرف الآن أنه طبيبها المجهول الذي خاطر بحياته لإنقاذها، وتدرك -من غير شكٍّ- أنه سيظل حبيبها الوحيد. لكنها تعرف أيضًا استحالة العيش معه، تعرف أن الحب لا يصنع حياة، وأنها تختنق سواء في وجوده أو في غير وجوده. تتأكد الاستحالة كلما التقى الاثنان وجهًا لوجه، وتتأرجح العلاقة بين طرفين لا يلتقيان؛ أحدهما يحمل وعدًا بالثبات والديمومة، والآخر يسحب الوعد دائمًا.

كانت فيكتوريا في سيارتها عندما هربت الحيوانات من السيرك، وكانت سماء روما في بدايات

الربيع مغطاة بندف اللقاح الأبيض. توقفت السيارة فجأة أمام نَمرٍ يَعبُر الطريق. كان على فيكتوريا أن تمسح زجاج السيارة لتدرك أن ما تراه حقيقة. بتلك الفانتازيا المصنوعة يجيب الفيلم ببساطة عن سؤال المستحيل، يقول: إن المستحيل ممكن من خلال الشعر والفن، مثل اجتماع النمر وما يشبه «الثلج» في شوارع روما ذات ربيعٍ.

مطارات

من سافر كثيرًا يعرف تلك الرائحة. هي خليط من البارفان الفاخر وهواء التكييف المكتوم ورائحة الكاوتشوك الساخن والأطعمة الخفيفة سابقة التجهيز. رائحة معلبة تثير الغثيان يضاف إليها عامل الوقت ووطأة المسافة لتصبح تجربة السفر من أثقل التجارب على نفسي كما هي على غيري. الرحلة بين القاهرة ومونتريال تستغرق نحو إحدى عشرة ساعة بالطائرة. أضف إليها ساعتين في المطار قبل السفر، وثلاث ساعات ترانزيت في باريس، وساعة أخرى في المطار عند الوصول، وفرطًا من الساعات غير محسوب من البيت إلى المطار ومن المطار إلى البيت... بين مصر وكندا يوم كامل من المشقة. النوم متقطع والطعام بلا طعم والحركة كثيرة وبطيئة في آنٍ واحدٍ.

الشوبنج في المطارات الأوروبية تسلية لا يُستهان بها. لو كان المسافر يملك القدرة على زيارة «هيرميس» يمكنه أن يشتري أحد إيشارباته المربعة الشهيرة التي تساوي الآن أكثر من مائتي يورو أو ألف وخمسمائة جنيه للإيشارب الواحد. أما لو لم يكن يملك هذه القدرة الشرائية أو كان يبرأ بنفسه من مظاهر الثراء الفاحش مثلي، فعليه أن يكتفي بشوبنج الفترينات، أي بالفرجة التي تؤدي إلى مزيج من الغربة والاستغراب.

في المطارات الأمريكية، الشوبنج يتراجع لصالح نشاط آخرَ هو نشاط الأكل. الطعام متوفر بكميات هائلة وبطريقة عرض تكاد تخلو من الذوق. «الجنك فود» منتشر في المطارات ويعادل ما نسميه في مصر «الأكل الشعبي»، لكنه في أمريكا نموذج لانهيار القيم. فضلًا عن أنه يقل في جودته عدة درجات عن الطعام الشعبي كما نعرفه عندنا متمثلًا في عربات الفول والكشري والكبدة الإسكندراني والسجق البلدي. شركات الجنك فود تتنافس في إضافة المشهيات وتجهيز اللحوم تجهيزًا يقلل من الفائدة الغذائية لصالح الرائحة والمذاق الصناعيين. بعد ساعة من شراء البيتزا وسندوتش الهامبورجر والبطاطس المحمرة يصبح هذا الطعام سابق التجهيز غير صالح للاستخدام الآدمي.

ومع ذلك، في كل مطارات العالم، يستمر الناس في شراء ما يتوفر من الطعام السريع ويلوكونه بنفس السرعة التي يبتاعونه بها. المشقة تتضاعف بسبب الوهن الذي يصيب الجسم لقلة أو لسوء الأكل. ولكن ما العمل؟ ليست هناك وسيلة للتسلية غير هاتين الوسيلتين. قلة قليلة من الناس يضيفون إلى طقسَي التسوق وتناول الطعام طقس القراءة، وقلة قليلة أخرى تلجأ إلى النوم، بمساعدة القراءة أو من دونها. حاولت عدة مرات قراءة رواية في المطار أو على متن الطائرة ولكن محاولاتي تبوء عادة بالفشل. المطار مكان ترانزيت، عبور وقلق وانتظار وترقُّب. الجرائد والمجلات التافهة والروايات البوليسية والعاطفية تصلح للمطارات، فكل ما يصلح لقضاء الوقت

وتنتهي صلاحيته بانتهاء الرحلة أو بانتفاء ظرف السأم يصلح للمطارات.

لديَّ مشروع رواية بطلها رجل تعوّد أن يسافر كثيرًا بالقطار أو بالطائرة. يعمل مندوبًا لشركة كبيرة أو موظفًا في مؤسسة للاستثمارات الدولية أو دبلوماسيًّا تستدعي وظيفته التنقل المستمر لإجراء المباحثات وتوقيع الاتفاقيات. هذا الرجل يكتشف في أثناء رحلاته الكثيرة وَلَعه بقراءة الروايات البوليسية والعاطفية. روايات تشتهر أسماء كتابها وتلمع في عالم البست سيلر أو الروايات الأكثر مبيعًا في العالم. يقرؤها بلغتها الأصلية أو مترجمة. يقرؤها بنَهم واستمتاع شديدين رغم تكرار الوصفة وتشابه الشخصيات. يختارها عادة بما يتناسب مع مدة الرحلة، روايات قصيرة للرحلات القصيرة، طويلة للرحلات الطويلة، فلا تكاد الرحلة تنتهي إلا وقد انتهى المسافر من قراءة الرواية الجديدة ثم نسيانها، لأن النسيان شرط من شروط الاستهلاك.

شيئًا فشيئًا، يكتشف صاحبنا أنه فقد الرغبة في العمل وأصبحت رحلاته ثقيلة على نفسه، اللهم إلا في أثناء السفر، في تلك الساعات التي يقضيها في القراءة في المطار أو في محطة القطار، في الطائرة أو في القاطرة، بعيدًا عن منغصات العمل وبمعزل عن حركة الناس. يفقد الرجل عمله وسكنه وتتحول حياته اليومية إلى سلسلة من الرحلات المتصلة بين محطات القطار والمطارات الداخلية، ينتقل في أثنائها من مدينة إلى مدينة حاملًا حقيبة صغيرة تتسع لاحتياجاته الأساسية، ورواية جديدة يتخلص منها بمجرد انتهاء الرحلة. المشكلة الأولى التي تواجه كاتبة هذه القصة، هي وصف هذا النوع الغريب من الإدمان بكلمات ومواقف لا تخص الإدمان. والمشكلة الثانية هي نهاية القصة: إلى ماذا يؤول مصير هذا الرجل؟ عند هذا الحد توقف تفكيري وتركت القلم جانبًا.

ولولا أني أكره المطارات ومحطات القطار لتمنيت أن أكون هذه الشخصية، بلا سكن ثابت وبلا عملٍ، ولولا أني لا أطيق قراءة الروايات البوليسية والعاطفية الساذجة لأصبحت كاتبة لامعة من كُتاب هذا النوع من الأدب «البوب» أو الشعبي. لكن كتابة رواية هذا مضمونها يحقق المعادلة الصعبة، يحل الخيال محل الواقع ويصبح من الممكن لمن هم مثلي أن يخوضوا فيما يكرهون باستخدام ما يحبون، أو شيء من هذا القبيل. نقيض الشخصية دائمة التنقل والحركة هي شخصية توم هانكس في فيلم «المطار» إخراج ستيفن سبيلبيرج. يمثل هانكس شخصية مواطن من أوروبا الشرقية يظل حبيسًا في مطار كينيدي بنيويورك لا يستطيع دخول أمريكا ولا يستطيع العودة إلى بلده لظروف سياسية.

معنى الرحلة يستدعى الشيء ونقيضه: الحركة المستمرة التي لا نهاية لها، والنزوع إلى الثبات عند بلوغ الهدف. بين النقيضين منطقة وسيطة تتلخص فيها هواجس السفر، منطقة انتقالية منها تنطلق الحركة وإليها يعود المسافر لكي يعاود الرحلة من جديد. هذه المنطقة الوسيطة المحملة بكل هواجس الرحلة وبكل تفاصيلها؛ المركّب منها والبسيط، هذه المنطقة التي أصبحت بعد أن هاجرت إلى كندا أتهيبها كثيرًا، هي المطار. ولا شيء ينفع، لا التسوق ولا الطعام ولا القراءة، لا شيء

يخفف من وطأة الساعات سوى الحُلم بكتابة رواية -يومًا ما- عن رجلٍ أحب المطارات وتاه فيها.

ابتسامة هتلر

في مطار مونتريال، عند البوابة المؤدية إلى طائرة الشركة السويسرية المتجهة إلى زيورخ، وفد من العجائز في رحلة سياحية. أصغرهم سنًّا في نحو الستين؛ امرأة هستيرية لا تكفُّ عن أخذ الصور للجميع، فرادى وجماعات. رجل صوته مرتفع يجتذب النظر بمجرد الصياح وهو جالس في مكانه، فصوته هو وسيلته الوحيدة لتأكيد وجوده وادعاء الحيوية رغم زوالها. زوج وزوجته ينظر كل منهما في ناحية مختلفة، هي تعيد تقييم السيدات الأخريات في الرحلة وهو يعيد ترتيب محتويات حقيبة صغيرة يحملها معه وكأن العالم كله قد اختزل فيها. تتكرر هذه الحركات والأصوات والإيماءات بنفس الشكل والمضمون في كل مطارات العالم، في نفس اللحظة وبنفس الإيقاع.

بملاحظة المكتوب على الحقائب الزرقاء المعلقة على أكتاف معظمهم وعلى الكاسكيتات التي يضعها بعضهم على رأسه والكروت المُمغنطة المتدلية من أعناقهم والتي كتب عليها بالأزرق اسم الشخص وبيانات أخرى مصاحبة لصورته، تبين لي أنهم من يهود مونتريال وفي طريقهم لزيارة إسرائيل. على الحقائب شعار يقول: «مسيرة الأحياء» (نسبة ربما إلى الناجين من النازية) وعلى الكاسكيت نجمة داوود ورقم ٦٠.

كيف لم أنتبه إلى ذلك منذ البداية؟ جماعة من يهود كندا المُتعصبين لإسرائيل ذاهبون للاحتفال بستين سنة على إنشاء الدولة الصهيونية. رأيت مشاهد مماثلة في شوارع مونتريال: علم إسرائيل يرفرف على البيوت والسيارات، ليس لأن أصحابها مهاجرون إسرائيليون (كما هو حال المهاجرين الإيطاليين مثلًا الذين يشرعون العلم عند كل نصر لفريق كرة القدم الإيطالية)، ولكن لأن أصحابها موالون للدولة الصهيونية، معادون للسامية العربية.

الرجل الجالس أمامي (صاحب الصوت العالي) رآني أكتُب في نوتة فأرسل زميله، بعد أن أعيته الحيلة وأقعدته آلام المفاصل، ليتجسس عليّ. عاد الجاسوس العجوز بالخبر الذي أكَّد شُكوكه. السيدة الجالسة أمامهما تكتب بالعربية. بعد قليل جاءت إحدى المضيفات تسألني عن الباسبور. تأملته وقارنت الصورة بالأصل وأعادته إليَّ مع كلمة شكر مقتضبة. تزامُن الحدَثين جعلني أحسُّ بالمؤامرة. هل خاف العجوز أن أكون مصدر خطر لمجرد أني أكتب بالعربية فقام باستدعاء المضيفة؟! تطل البارانويا برأسها كالأفعى على أهون سببٍ.

اطمأن قلبي عندما رأيت المضيفة تراجع باسبورات الآخرين. اختفى الشعور بالاضطهاد وحلَّت محله مشاعر متضاربة من الغيظ والدهشة والاستسلام لواقع الأمور. هي ستون عامًا على النكبة وليس على إنشاء دولة اليهود. تذكرت أنني قبل السفر بأيام تبرعت بمبلغ بسيط من المال للمشاركة في الدعاية عن ستين عامًا على ضياع الحق الفلسطيني، على أن ينشر الإعلان على صفحة كاملة

في جريدة «لابريس» الفرنسية. تصل تَكلُفة الإعلان إلى ١٧ ألف دولار كندي ومساحته مقسمة إلى عدة أجزاء يُخصص جزء منها لخريطة فلسطين والتغيرات التي طرأت عليها منذ ١٩٤٨ حتى اليوم، وجزء آخر للتذكير بالحقائق المنسية عن الصراع العربي - الإسرائيلي وتاريخ موجز لحركة الاستيطان اليهودي مصحوبًا بصور وثائقية. العرب يحتاجون إلى كل هذه الأموال الطائلة لمجرد الإعلان عن والتذكير بالحق الضائع، أما اليهود الموالون لإسرائيل فأبواب الإعلام مفتوحة أمامهم، إن لم يكونوا يمتلكونها أصلًا. وهذا كله معروف ومكرر، فلا داعي لاجتراره.

على الطائرة المتجهة إلى زيورخ، كنت العربية الوحيدة الجالسة وسط عشرة صفوف من الأمام ومن الخلف من الصهاينة المتدينين. كنت من آنٍ إلى آخر أكتب في النوتة فيأتي النشيطون من كبار السن للفرجة عليّ والهمس فيما بينهم وهز الرأس الذي يؤكد أنهم على عِلْم بوجودي وأن لديهم حائطًا دفاعيًّا جاهزًا لأية حركة خيانة. فجأة عرضت عليّ السيدة الجالسة إلى جواري (كانت في نحو الخامسة والخمسين وبدا أنها منظِّمة الرحلة) بونبونًا ملونًا في كيس بلاستيك كبير. شكرتها وتناولت واحدة. تشبه البونبون المصري الرخيص ومكتوب على ورقتها كلامًا بالعبرية.

عن يميني تجلس سيدة أخرى بدا بعد قليل أنها ليست من الفوج. فبعد إقلاع الطائرة، وبعد أن اطمأنت أننا لن نموت وكفت عن الارتجاف، نظرت إلى النوتة التي أكتب فيها، ثم بشيء من التردد أخرجت من حقيبتها جريدة وأخذت تتصفحها. الجريدة عربية، والسيدة المرتجفة لأسباب لا أعرفها، لا شك من بينها الشعور بالحصار الصهيوني على متن الطائرة، استمدت شجاعتها من نوتة اليوميات التي كنت أدوِّن فيها هذه السطور. أصبحنا بهذا الإعلان السافر عن هُويتنا مثل غريقتين في بحر غدار يشوبه الحذر والترقب ولا ينفع فيه البونبون لتهدئة النفوس.

هل تتوقع أني سأتحدث معها بعد أن عرفت أنها عربية مثلي؟ ربما. لكني لم أفعل. غلبني النُّعاس وسمعتها تطوي الجريدة وتعيدها إلى الحقيبة، فيما كانت همهمة الجيران عني وعنها تخفت وتتزوي. اطمأنوا إلى أن الكثرة تغلب الشجاعة. وحتى لو لم تكن شجاعة حقيقية أن أكتب بالعربية وأُثير التوتر من حولي، أو أن تقرأ السيدة الجالسة عن يميني جريدتها دون حرج، يبقى أننا تواصلنا بالإشارة وعرفت كل منا لغة الأخرى وتحمَّلنا مثل الأبطال وطأة الحضور بين أفراد هذا الفوج السياحي سبع ساعات كاملة.

في طريق العودة، التقيت بسيدة البونبون مرة أخرى على الطائرة. هي التي عرفتني وابتسمت لي. لو التقيت بها في الشارع لقلت إنها سيدة طيبة. تذكِّرني بالراهبات؛ بملابسهن الرقيقة وابتسامتهن المؤمنة. كيف تساند مثل هذه الابتسامة الوديعة دولة مثل إسرائيل؟ ذكرتني بشخصية الأب العجوز في فيلم كوستا جفراس «صندوق الموسيقى». كان يبتسم بنفس الوداعة وهو ينفي عن نفسه تهمة التورط في المذابح النازية. تذكرت المشهد الأخير وهو يحتفل بانتصاره بعد أن برّأته ابنته المحامية من التهمة الموجهة إليه، وكيف اكتشفت الابنة صورة له بابتسامته المرعبة

وهو يلقي بضحاياه في حُفَر هتلر الجماعية. كانت الصورة مخفية بعناية في صندوق الموسيقى، وكان الأب لا يزال يبتسم وهو يتابع من بعيد وَقْع الاكتشاف على وجه ابنته. وكأن العدوانية الأصيلة التي تتكشف في نظرة الأب وابتسامته المتهكمة هي التي تؤكد في النهاية قيمة الفيلم وتُعلي منها. وكأن الفيلم كله ينتظر تلك الابتسامة الأخيرة ليقول ما لم يقله المخرج طوال الفيلم؛ لأنه استكان لنوع من السينما المضمونة، المبنية على حكاية وتتابع تقليدي.

فكرت أن ما يدهشنا في السينما عادة ما يثير كرهنا في الواقع، أما العكس فليس دائمًا صحيحًا. ما زالت ابتسامة الأب المدهشة في فيلم كوستا جفراس عالقة بذهني تحمل الفيلم كله على عاتقها، أما ابتسامة السيدة صاحبة البونبون التي استفزتني فلا تصلح لأن تكون ابتسامة مدهشة؛ لأني رأيتها في الواقع ولم أرها على الشاشة. إن الحدوتة المعتادة في الفيلم والتي أثارت تحفُّظي لفرط سذاجتها لم تكن لتثير أية دهشة في الواقع، إذ إن التاريخ كثيرًا ما نقل إلينا مثل تلك الحواديت حتى طواها النسيان.

جنيف

مايو ٢٠٠٨: مصر ضيفة شرف معرض جنيف الدولي، والوفد المصري يضم نحو أربعين عضوًا أنا واحدة منهم. عشرات المداخلات يوميًّا وعدد هام من دور النشر المصرية وعروض سينمائية وموسيقى عربية يقدمها خماسي الأوبرا وعرض للوحات نازلي مدكور وعدد من المداخلات المهمة عن المثقفين السويسريين في مصر. شارك في المعرض من الكُتّاب إبراهيم أصلان وبهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم ومنتصر القفاش، ومن التشكيليين آدم حنين ونازلي مدكور، ومن النقاد جابر عصفور ومنى طلبة، ومن المثقفين أنور عبد الملك وفتحي صالح. تمثيل مشرِّف لمصر وحضور جيد من قِبل الجمهور، عرب وأجانب.

التقيت بأول وجه صديق في الوفد، وجه إبراهيم أصلان؛ عذوبة وذكاء متوقد ونظرة ماكرة وابتسامة أمكر. في حضوره طاقة لا تخفى على أحد. في حفل العشاء ليلة افتتاح المعرض جلس مع عدد صغير منا وتحدث عن الكتابة. نادرًا ما يتحدث أمام الجمهور الكبير بهذه الطلاقة وعلى سجيته وبعمق من يدرك تمامًا لماذا وكيف يكتب. يقول إنه لا يكتب عن تجاربه الشخصية، بل يكتب بها، يتذكر «وردية ليل» وكيف أراد كتابة هذه الرواية بأسلوب التلغراف حيث الأسئلة دائمًا مضمرة والإجابات مليئة بالألغاز. أجمل ما في حفل العشاء الرسمي حديث عم أصلان، أما الطعام -ما بعد الحداثي- الذي قدِّم لنا فقد بدا وكأنه من اختراع شيف سويسري متحذلق، وكان مثارًا للضحك طوال السهرة.

وجه بهاء طاهر وابتسامته النيلية يشيعان الطمأنينة، وحضوره في المعرض بكتبه وبذاته تأكيد على أن الثقافة في مصر بخير، حتى لو كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية متردية. في سهرة مع الأصدقاء في بيته، تحدث عن آخر الأفلام التي شاهدها في تونس قبل مجيئه إلى جنيف. بحماس نتذكر فيلم ناصر خمير الأخير «بابا عزيز»، وبحماس أكبر نتذكر أجمل مشاهد الفيلم ونتفق على عرضه في نادي الفيلم التي تنظمه سلمى مبارك في جامعة القاهرة. يجمعنا وبهاء طاهر حُب الأدب وغواية السينما وحديث لا ينقطع عن الأدب الجديد في مصر.

جولة في شوارع جنيف الساكنة ليلًا، بصحبة جميل عطية إبراهيم. يسألني لماذا لا أكتب، وأجيب أنني أختنق في كندا، بلا وحي وبلا رفاق. يُخرج من جعبة الأسرار، هو المهاجر من عشرات السنين، وصية. يقول: ابحثي ما شئت في الغربة عن مصادر المعرفة التاريخية وغيرها، واكتبي أي كلام، اكتبي كل ما يخطر ببالك. عندما تعودين إلى مصر ستكونين مستعدة للكتابة. استقر بنا الحال في مقهًى يفتح بابه ما بعد الثانية عشرة ليلًا، وهو أمر نادر فيما يبدو هنا، ودار الحديث بحماس حول أدباء المدونات في مصر بين تهمة الاستسهال ودهشة الاكتشاف الجديد. اتفقنا على أنها ظاهرة مهمة في ذاتها بغض النظر عن معيار القيمة.

يمر الوقت سريعًا بين الأصحاب: منتصر القفاش وحسن حماد (صاحب مجلة لسان الألمانية المهتمة بنشر الأدب العربي). أحد محفزات السفر من كندا لجنيف للمشاركة في معرض الكتاب هو وجود هؤلاء الأصدقاء. يتصل حبل الكلام وكأننا كنا بالأمس معًا، وبين ندوات المعرض وجولاتنا الاستكشافية في المدينة، نُقيم الدنيا ونقعدها، نضحك كثيرًا ونتوقف عن الكلام أحيانًا بلا سبب، نستمع إلى مشروعات حسن التي لا نهاية لها ونناقشه فيها، نتكلم عن آخر الروايات التي قرأناها وأعجبتنا وعن أفضل السُّبل للتفرغ للكتابة بعيدًا عن ضغوط الحياة والعائلة. يردد منتصر قبل نهاية الجولة أنه لم يشعر بعدُ بالاحتشاد! تضحكني الكلمة كثيرًا، فجنيف مدينة صغيرة لا مكان فيها للمغامرة، والسياحة فيها محدودة بحدود البحيرة والمنطقة القديمة. لكن الجولة تطول قليلًا بحثًا عن مصدر احتشاد جديد حتى يرضى منتصر ويوافق على العودة أخيرًا إلى الفندق.

في بهو الفندق ألتقي بأنور عبد الملك، أقدم له نفسي وأقول إني ابنة عبد القادر. كان يعرف أبي معرفة غير وثيقة، لكن خطوط المحبة تمتد فورًا بيننا. هذا الرجل الحنون الثائر الواقف أمامي بتاريخه العريض وعينيه الثاقبتين يؤكد أن ثَمةَ حركة إيجابية نشطة في مصر، في سبيلها لتغيير الأوضاع إلى الأحسن. يقودنا الحديث إلى أمور أخرى، وأعرف منه أن الموسيقى رفيق حياة. يقول: استمعي لريتشارد شتراوس وبرليوز. وأعِدهُ أني سأفعل. نتبادل الإيميلات ونفترق، لكننا نعرف من وراء الكلمات أننا سنلتقي قريبا جدًّا.

في المعرض، بانوراما مصرية يقدمها مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي برئاسة د. فتحي صالح. تجتذب البانوراما رواد المعرض كما تجتذبهم إصدارات المركز من أقراص سي دي وكتب. أتصفح الكتاب الذي أصدره المركز مؤخرًا بالإنجليزية عن قصر عابدين «درة القاهرة في القرن التاسع عشر»، ويبهرني إخراجه وتنفيذه. أكثر من مائتين وسبعين صفحة من القَطْع الكبير عن تاريخ القصر ومقتنياته بالصور والوثائق. يقدم لي د. صالح سيدةً رقيقة لا يتعدى عمرها الثلاثين عامًا ويقول: منى هنري، المسئولة عن الإخراج الفني للكتاب. ما يقرب من مائتي شاب وشابة يعملون تحت رئاسة هذا الرجل، وبفضل توجيهاته ينتجون ما تعجز عن إنتاجه مؤسسات أضخم وأقدم عمرًا، ينتجون المعرفة الموثقة، أفضل سفير للثقافة المصرية في العالم.

في بهو الفندق، بيانو ميكانيكي يعمل بالكهرباء ويصدر نغمات بلا طعم تتحرك معها أصابع البيانو رغم عدم وجود عازف. توقف عنده معظم رواد الفندق ومضوا وهم يبتسمون كأنها نكتة أو فخّ لذيذ. من الممكن أن تتحول الثقافة المصرية إلى مثل هذا البيانو الميكانيكي، مجرد ترديد أعمى لما هو مضمون ومقرر سلفًا. ومن الممكن أيضًا، وهذا ما حدث لحسن الحظ في جنيف، أن يسيطر العازف على الآلة ويبدع أجمل الألحان. ونحن الذين نقرر، إما أن نتبع الآلة وإما أن تتبعنا.

إيجور

في الطائرة المتجهة من زيوريخ إلى مونتريال، جلست بجوار رجل طويل القامة بدا للوهلة الأولى مستاءً من وجودي؛ كان طوله لا يسمح له بتحمل سبع ساعات في هذا المكان الضيق، وكان وجودي يحدُّ بالضرورة من حركته. تبين لي فيما بعد أنه يتحرك كثيرًا ويحتل بذراعيه أكبر مساحة ممكنة كأنه يفتح لجسده مساحة للتنفس في كل الاتجاهات. بدَت حركة يديه غريبة. كان يحركهما فيما يشبه التمارين الرياضية ويضغط أحيانا بيد على أصابع اليد الأخرى كأنه في حلبة ملاكمة. لم أرَ وجْهه جيدًا؛ كان شعره طويلاً يصل إلى كتفيه، وكان عمره لا يزيد على خمسة وأربعين عامًا.

بعد الإقلاع بقليل، أراد جاري الفرجة على التلفزيون. الشاشة الملصقة بظهر المقعد أمامه يمكن تحريكها قليلًا، وهو قد تعوَّد على تحريك كل ما يمكن تحريكه، أخذ يحركها إلى الأمام والخلف ويضغط عليها لعلها تضيء، لكنها ظلت معتمة. راح ينقرها بأصابعه في مواضع مختلفة، لا شيء. سألته بالإنجليزية إن كان يريد المساعدة. رفع كتِفَيه إلى أعلى وهمهم شيئًا فهمت منه أنه يريد مشاهدة فيلم. الريموت كونترول مثبت في ذراع المقعد من الناحية اليسرى، انحنيت قليلًا لأخرجه من مكانه وأعطيته لجاري الذي أخذ يقلبه بين يديه وهو يشير به في اتجاه الشاشة. ظهرت قائمة المعلومات فجأة لكنه لم يعرف كيف يختار من بينها قناة الأفلام. فكرت: هذا الرجل لا يتكلم أي لغة أتكلَّمها، وهو فوق ذلك غريب الأطوار ومزعج. يجب التخلص منه على الفور. هكذا بدا لي أن التلفزيون هو الحل الوحيد لتهدئته. لكني أيضًا أحسست بالشفقة عليه، ربما كان ملاكمًا، وهو ما يفسر حركة يديه وثقل لسانه ونباهته المحدودة. كانت صورة سيلفستر ستالوني في فيلم «روكي» هي ما استقر في ذهني عن جاري الغريب وأطار النوم من عيني.

بعد نقاش طويل بلغة لا يتكلمها أيّ منا هي خليط من كلمات إنجليزية وفرنسية وألمانية ومن لغات أخرى غامضة، استقر جاري في النهاية على فيلم. اختار بالإشارة فيلم «قراصنة الكاريبي». فكرت أن جاري سيشاهد الفيلم ويتركني أنام، لكني لاحظت أنه لا يضع السماعات. يشاهد الصور فقط ويهز رأسه من حينٍ إلى آخر. أخرجت له السماعات من كيس أمامه لكنه شكرني مبتسمًا ولم يضعها. أخذ يقلبها بين يديه ويتحسسها، كأنه يريد التعرف عليها وكشف سرها. مجرد سماعات عادية لكنها تكتسب بين يديه أهمية غريبة. ترك السماعات بعد قليل وأغلق التلفزيون وراح يضغط على أصابع يديه.

جاءت المضيفة بالوجبة الأولى؛ وجبة مكونة من طبق أرز بالسمك وسلاطة خضراء وقطعة جاتوه باردة وأشياء أخرى لا يأكلها أحد. مدَّت نحونا طبقًا كبيرًا مليئًا بالخبز، أخذ جاري لنفسه قطعتين ورفعهما لأنفه وراح يشمهما بعُمق قبل أن يضعهما على الصينية أمامه. قال لي «بون

ابيتي» وأجبته بالهناء والشفاء، واستقرت بيننا علاقة استلطاف مفاجئة سببها غرابة أطواره وفضولي لمعرفة الناس غريبي الأطوار.

لاحظت يده اليمنى وهو يأكل؛ يد كبيرة بشكل مخيف، بالإضافة لأن إحدى أصابعها شبه مكسورة. سألته فجأة عن الإصبع، وكأني ذكرته بتمارين المَساج فعاد لتحريك يده والضغط على أصابعه. قال جملة طويلة لم أفهم منها سوى كلمة «تزحلق» ثم بعد عدة محاولات باللغات الثلاث التي يبدو أنه لا يُتقن أيًّا منها، فهمت أنه كسر إصبعه وهو يتزحلق على الجليد في سويسرا.

بدأت علاقتنا تتوطد منذ تلك اللحظة، بعد حكاية كسر الإصبع. زادت أحاسيس الشفقة من ناحيتي واكتشف هو أني شخص لطيف وشكرني على اهتمامي بكلمة واحدة: ميرسي، نطقها دون راء. سألته عن اسمه وأجاب: إيجور. قلت بسعادة لم أفهم مصدرها: روسي؟ أجاب نعم. قلت مبتسمة: دوستويفسكي! ضحك ضحكة عالية يشبه صداها صدى الريح على جبال الأورال. شجعتني ضحكته على ترديد حصيلة الكلمات الروسية التي أعرفها والتي لا تتعدى أسماء الأدباء والفنانين الذين تربيت على محبتهم: تشيكوف، تشايكوفسكي، سولينتسين، نابوكوف، تاركوفسكي... قال: آه، تاركوفسكي، وهز رأسه معجبًا. قلت: نوستالجيا، أندريه روبليف، سولاريس... وأجاب في عشر جمل مختلفة ما معناه أن تاركوفسكي أعظم مخرج تشكيلي في تاريخ السينما الروسية. اتفقنا إذن على محبة تاركوفسكي. قلت: كان مؤمنًا أرثوذوكسيًّا. وقال إيجور: نعم، نعم. وكأنه يقول ليست هذه تهمة!

لم نكفّ عن الكلام حتى نهاية الرحلة، بلغة وسيطة لا أعرف كيف ولا متى توصَّلنا إليها، فيها كثير من الإشارات والهمهمات والكلمات الروسية التي لا أفهم معناها، وفيها أيضًا خطوط كثيرة خططناها في كراسة اليوميات، ورسوم تشرح ما تعجز اللغة عن توصيله، وضحكات كثيرة من القلب كلما تأكد عجز اللغة، وكلما أراد إيجور التعرف على شيء بتحسُّسه طويلًا بين يديه أو بشمه! عرفت أنه فنان تشكيلي، وأنه في طريقه لافتتاح معرض في أمريكا. رسم لي سكتش اللوحة الرئيسية في المعرض: «أشباح الميدان الأحمر» ورسم ماكيت كائنات بلا ملامح سوف توضع في قاعة العرض كأنها أشباح خرجت من اللوحة. ضحك وهو يشير إلى أحدها قائلًا: بوتين.

في المطار، أعطاني كتابًا عليه اسمه: إيجور نوفيكوف. كتاب يضم لوحات معرضه الأخير في سويسرا، لوحاته تشبه أعمال كاندنسكي وميرو في براءتها وفي مساحات اللون الداكنة الصريحة التي تغطي سطح اللوحة وفي مفردات التشكيل البسيطة الطائرة في فضائها الفسيح بلا رابط سوى رابط الإيقاع. قبل أن نفترق تبادلنا قُبلة وداع وابتسامات تشجيع لا نعرف من أين جاءت، ولماذا حملناها كل هذه الثقة، ووعد بأن نتكاتب، لن نفلح غالبًا في الحفاظ عليه.

العودة

ثلاث سنوات، عُدت في أثنائها إلى مصر مرة واحدة لمدة أسبوع. بعد أيام من عودتي من جنيف سأكون في مصر. خائفة ومشتاقة في نفس الوقت. أتذكر آخر زيارة طويلة لي في صيف ٢٠٠٥ ويزداد خوفي واحتسابي باقتراب الموعد.

منذ أيام زارني صديق رجع لتوِّه من القاهرة. كعادة المهاجرين أسأل عن الأخبار، وأترُك للخيال مساحة للتفسير والتأويل. الخيال يسد الفراغ الذي تتركه كلمات صديقي الغامضة وما تثيره في نفسي انطباعاته الذاتية من تحفظ وقلق. البلد في حالة خراب، يقول صديقي. البلد ينهار والناس يتفرجون، الناس عاجزون عن إنقاذه. نزيف في الداخل بين الحلق والبطن أشعر به فور سماع هذا الكلام. أقول: إن البلد الذي تخطى منذ آلاف السنين كل المحن، يحتضر للمرة الألف، لكنه لا يموت. أقول ذلك لصديقي بصوت خافت وبنبرة مترددة، وأسخر في نفسي من استخدام كلمة «بلد» ومن نبرة الحزن التي انفلتت رغمًا عنِّي.

أتفاءل بشكل مبهم دائمًا ويبدو ردي الرومانسي على صديقي بلا سندٍ معقول. ربما كانت قناعتي بدوران التاريخ وصيرورته وراء رفضي لفكرة الخراب الكامل. ثم إن حالة الخراب التي يعممها صديقي يجب أن تواجهها حالة تفاؤل أعممها أنا كحاجز دفاعي مغرق عن عمد في سذاجته، حاجز ضد كل ما هو ثابت ومطلق، لا يخلو من وَجاهةٍ ولا يخضع لمنطق أرسطو.

هذا حالي حين يُحاصرني اليأس؛ يأس الآخرين تحديدًا. أبالغ من ناحيتي في التفاؤل وأترك الهواجس والظنون تفترسني من الداخل، في معزل عن الميلودراما الجماعية. كيف ومتى تعلمت هذه الحيلة: تصدير الصورة الإيجابية واختزان الألم؟ أعرف أني مولعة بالأناقة، أناقة الروح المتعالية المترفعة. تذكرني بأناقة نيتشة القريبة من روح المشائين وحكمة البدو الرحالة. أفكر أن الأناقة حاجز شخصي يمنع الخراب من التغلغل إلى الداخل. يحول دوني ودون الميلودراما بمعناها العام، بمعنى «الولولة» إن جاز التعبير، على الرغم من جمال الطقوس الشعبية المرتبطة بالبكاء في حد ذاتها.

كان دولوز أيضًا متفائلًا كبيرًا، حتى في انتحاره. لا يَتخِذ المنتحرون من الفلاسفة قرار الانتحار بشكل مأساوي، بل يعتبرونه استراتيجية من استراتيجيات التفاؤل، نوعًا من أنواع الترفُّع عن الرضا. كان دولوز متفائلًا بنفسه كإنسان، وبالإنسان الآخر الذي لم يعرفه وظل يحلُم به، إنسان نيتشة، ديونيزوس. التفاؤل نقيض الخراب، نقيض العدم، حتى لو لم يفضِ إلى حياة سعيدة. التفاؤل طريقة أنيقة في الحياة، حتى لو أفضى إلى الموت أو الانتحار.

قلت لصديقي تأمينًا على كلامي: إن الخراب لا يعني الموت. والخراب لا يشمل شعبًا بأكمله. الخراب يخص شريحة أو شرائح، ويمكن مقاومته. لم أكن في حاجة لإقناع صديقي بتغيير رأيه في

«حال البلد»، ولم أكن أريد التأكد من استمرار ذهابه إلى مصر، فكلانا لن يكفَّ عن السفر وكلانا لن يكف عن محبة المكان والناس. وكلانا أيضًا لا تشغله السياسة لا من قريب ولا من بعيد؛ لذلك بدت كلمة «بلد» كلمة فارغة ومؤثرة في الوقت نفسه، قادمة من زمن قديم، زمن «في بيتنا رجل» و«غروب وشروق».

صديقي يعتبر أن المعرفة بالأوضاع ضرورة تؤدي إلى اليأس بينما أعتبر أنا أن المعرفة مرحلة من مراحل الخبرة وليست غاية من غاياتها. لنقُل مثلًا: إن التردي الاجتماعي الذي نعيشه في مصر هو نتيجة للفوارق الهائلة بين الطبقات ولاستيلاء طبقة من المستغلين على مقاليد السلطة. كلنا يفهم ذلك، ولكن ماذا بعد؟ يتوقف صديقي عند تقرير الحال الراهن وتأخذه طبيعته الميلودرامية إلى مناطق مُعتمة من اليأس، الذي أحترمه أيضًا لنزاهته ولإنسانيته. لكني لا أتبع صديقي على طريق اليأس، لا أستطيع، حتى لو أردت بوعي وبموضوعية أن أفعل ذلك. المعرفة بواقع الأمور درجة من درجات الوعي، لا يجب أن تُفضي إلى تغييب الوعي الآخر، الذاتي والتاريخي، وعي الإنسان بما يمكن أن يصنعه كإنسان منعزل ومنفرد بعزلته، ووعيه بحركة التاريخ غير المتوقعة.

كان عالم الاجتماع الفرنسي إدجار موران يؤمن بـ «ما هو غير متوقع» في حركة التاريخ. يقول: إننا لو سألنا الناس في الثلاثينيات من القرن العشرين، عقب نجاح هتلر وموسوليني وحلفائهما في فرض السيطرة على أوروبا وأجزاء من العالم، إن كانوا يتوقَّعون انهيار الأنظمة النازية والفاشية في المستقبل؛ لأجاب الناس بالنفي القاطع. لكن ما حدث هو تحديدًا ما لم يكن منتظرًا أن يحدث، نهاية غير متوقعة لكابوس أيديولوجي مرعب ظل يتهدد أوروبا ما يقرب من عشر سنوات، تمامًا مثلما يتهدد العالم اليوم كابوس النظام الأمريكي وعملائه الدوليين.

لا ثبات إذن؛ لا الخراب نهاية محتومة ولا التقدم الإنساني خط صاعد أبدي. أقول لصديقي: إني سأقضي في مصر شهرين. يقول: لن تحتملي الوضع؛ وستعودين إلى كندا سريعًا. أبتسم وأسكتُ. لا جحيم ولا جنة، خليط من الاثنين هي عيشة المهاجر. أفكر أني أراقب الحياة من داخلي، فذاتي هي أبعد نقطة أستطيع تأمل الحياة من خلالها. وأراقبها أيضًا من خلال عيون أصدقائي. وكأن هذا البعيد قريب، مثل صديق قديم أو رفيق روح، هنا وهناك في الوقت نفسه. هل يصدق هذا على كل حياة؟ لا أحب التعميم، فقليلون من يشعرون بأن البعيد قريب يحل فينا أينما ذهبنا، وأن القريب والبعيد صفات متصلة تصدق على «البلد» وعلى الناس. هنا وهناك يجتمعان في نفسي بشكل لا يقبل الشك. أعرف ذلك بوعي وتسليم كاملين كما أعرف أن العودة بهجة وألم، وأن البهجة تعم وتفيض على مَن حولي، والألم لا يخص سواي. أما الخوف فيلازمني كظل أليفٍ، لا يمنعني من العودة ولا يدرأ عني نَزْف الأشواق.

بعد أسبوع من عودتي إلى القاهرة، انسحبت من بيت أمي وأبي في مصر الجديدة إلى بيتي في مدينة العبور. انسَحَب مثلي كثيرون، فبعد أن ازدحم الحي أصبح الناس يفضلون الإقامة في أحياء

ومدن جديدة مجاورة. كانت المكتبة التي ورثتها عن أبي في انتظاري، وحديقة صغيرة يطل عليها البيت تجعل للون الأخضر خصوصية وبهاءً في ذلك الفضاء الفسيح المحاط بالصحراء. في المساء، أنغام شوبان بأصابع دانيل بارنبويم تعلو في فضاء البيت وتسحبني إلى أعماق نفسي. أحسست في تلك اللحظة فقط أني عُدت بالكامل إلى القاهرة. العودة سلسلة من التراكيب، أنا وشوبان وبيت العبور وغير ذلك من رؤى وروائح لا تتحقق دونها حالة «العودة». ليس ثَمةَ انفصال بيني وبين كل هذا، لم أعد إلى القاهرة ولا عادت القاهرة إليّ «بواسطة» الموسيقى. كل ما حدث هو أن حالة التجميع والتركيب التي تحدث عنها دولوز تحققت باكتمال العناصر وتشعُّبها.

ما زالت مصر الجديدة بهيَّة. رغم الزحام، رغم الفوضى، رغم الزحف الشعبي المطرد في صورة محلات ومطاعم ومقاهٍ وأسواق تكاد تشبه في أذواقها محلات وأسواق الموسكي والعتبة. منطقة الكوربة استثناء تؤكد القاعدة. السائر في شوارع مصر الجديدة القديمة يتطلع دائمًا إلى أعلى مثلما يفعل المتجول في شوارع وسط البلد. يُخيَّل إليك أنك ترى أشباح الماضي وهي تتقافز بحُرية بين البلكونات والأسطح، تظهر أو تختفي حسب ذوق السكان وحسب وعيهم الثقافي والجمالي. بعض الأدوار العُليا ما زالت تحتفظ بروح الحي القديم، فيما عدا ذلك تتحكم الفوضى والعشوائية في كل شيء.

ما زلت أتنفس براحة وأنا أمر أمام البازيليك وأشعر بالزهو عند مدخل طريق العروبة وأمر كالحجاج تحت البواكي في منطقة روكسي وأمام جروبي والأمفتريون. تلك المعالم بما تحمله من ذكريات هي ما تبقَّى من مصر الجديدة كما عرفتها. اختفى مقهى ومطعم بالميرا العريق، اشتراه «ستاربكس» الذي يفتخر صاحبه المليونير الأمريكي بتمويل جيش تساحال الإسرائيلي. ولكن بقي ذلك المقهى الصغير في الشارع الواقع خلف بالميرا، صاحب أحلى عِنَّاب مثلج في المنطقة. وبقي أيضًا «شانتيي» الذي كان في عهود قديمة مخبزًا للحلويات الغربية، والذي يمكن لرواده اليوم أن يتناولوا فيه دون حرج زجاجة «ستيلا» مثلجة. تذكرت كلمات فيروز وهي تغني: سنرجع، خبرني العندليب، غداة التقينا على منحنى بأن البلابل لما تزل هناك تعيش بأشعارنا. وكأنها تضيف بصوتي، فما زال (بين ربوع مصر الجديدة) مكان لنا.

مكتبة «الديوان» موجودة الآن في مصر الجديدة، شارع أبو بكر الصديق. أخيرًا تحوَّلت إحدى فيلات الحي إلى «مكتبة» بدلًا من مطعم أجنبي أو بنك أو محل أحذية. يمكنك أن تجد مكانًا للسيارة، فالمكتبة تنأى بنفسها عن زحام المحلات في ميدان سفير. يمكنك أيضًا أن تتناول فنجان قهوةٍ وأنت تقرأ كتابًا، أو تدعو صديقًا لكلام رائق لا يعوقه باعة متجوِّلون أو شباب «نوفو ريش» من أبناء الطبقة الغنية الجديدة التي لا تقرأ (أو تتصفح) سوى المجلات. لم تعد الكتب ترفًا، بعضها له جمهور خاص، وبعضها يحقق أعلى المبيعات، المهم في النهاية أن يحتويها ويقدمها مكان مثل «الديوان» بأناقته وهدوئه وتنوع معروضاته وأيضًا بتميزه في تقديم الكتب الأجنبية والعربية على

السواء. عندما اشتريت من المكتبة كتبًا للأطفال لأَهديها لأبناء وبنات العائلة، أعطاني البائع مطوِيَّة تعلن عن أنشطة المكتبة الموجَّهة إلى الأطفال، في مصر الجديدة والزمالك. تخيلت نفسي لوهْلةٍ في مكتبة في كندا. ليس لأن المكتبات هناك أرقى من مكتباتنا هنا، ولكن لأن طرق التسويق وتعويد الجمهور على ارتياد المكان باتت متشابهة.

ذات مساء غاب عسكري المرور عن ميدان «أبو بكر الصديق»، كنت أطل من نافذة الدور الخامس كعادتي حين تجتذبني الأضواء البعيدة والحركة السيارة وإيقاع الناس في الطريق فلا أفكِّر في شيء وأروح أتأمل حال الدنيا. لاحظت بعد قليل أن السيارات تتحرك بشكل يكاد يكون هستيريًّا رغم أن سرعتها بطيئة. كأن الميدان قد تحول فجأة إلى حقل تجارب في الاتجاهات، كل سيارة تتخذ اتجاهًا مغايرًا للاتجاه المنطقي والمفروض قانونًا، وتحاول أن «تسرق» الاتجاه المعاكس؛ سيارة تتعامد على أخرى تكاد تصدمها من ناحية باب السائق وتتجنبها في اللحظة الأخيرة، لوري مزهوٌّ بضخامته يخترق منتصف الميدان وينحرف يسارًا ويمينًا مثل المكوك ليدخل شارعًا جانبيًّا غير مسموح بدخوله. لا شك أنه أوقف المرور في الشارع الجانبي وأجبر السيارات الصغيرة على التراجع لإفساح الطريق له، عربة كارو عليها بقايا خضراوات ذابلة تسير على يسار الطريق المخصص للعربات السريعة وتعطل مرورها. ناهيك عن السائقين الذين يرفضون السير في خط مستقيم، حيث تظل مقدمة السيارة دائمًا معوجة في اتجاه السيارات الأخرى في انتظار «الكسر» عليها. في خضم الفوضى السائدة وصوت الكلاكسات العالي والغضب المكتوم الذي كاد يفجر الميدان بأكمله هبَّت ريح متربة فجأة وهطلت بعدها بدقائق معدودة الأمطار. كأن المتأمل في الأعالي يرسل إنذاره الأخير أن اتقوني! وما من مستمع ولا من مُجيب.

مفهوم الناس عن التقوى محصور تمامًا، فما يعرفونه عن الأخلاق ويطبقونه منها لا ينطبق بحالٍ على المرور، يعتقدون أن التقوى لا تشمل مثل هذه الأمور الدنيوية، رغم أن السائر في شوارع القاهرة هذه الأيام يُخيَّل إليه أن عدد المؤمنين قد زاد وفاض بما في ذلك فئة السائقين والسائقات. ورغم الإيمان الطافح من وجوه الناس ومن ملابسهم، يظل غياب الأخلاق والآداب العامة سمة بارزة في الشارع؛ لذا يلزم بعيدًا عن الحذلقة والفذلكة تطبيق القانون والاستعانة -والحال هذه- بسلطة العسكري لا بسلطة الشيخ الذي يبدو أنه فَشِل على مدار العقود الفائتة في استنهاض الهمم لإصلاح ما فسد من أخلاق.

المسافة بين مدينة العبور حيث أسكن ومصر الجديدة حيث تسكن أمي لا تستغرق أكثر من عشرين دقيقة بالسيارة، لكني أقطعها في كافة أوقات النهار والليل، من الثامنة صباحًا وحتى الثانية عشرة ليلًا، في مدة تتراوح بين ساعة وساعتين. الاختناق يحدث بالقُرب من موقف الميكروباص وعند مدخل الطريق الدائري وبعد الكوبري المؤدي إلى جسر السويس وعلى الطريق إلى ملاهي السندباد وبالقرب من مفترق الطرق المؤدية إلى نادي الشمس من ناحية، وسور الكلية الحربية من

ناحية أخرى، ثم عند كوبري نادي الضباط وطريق العروبة. باختصار، تتوزَّع نقاط الاختناق على الطريق بأكمله، لا مفرَّ من الزحام، لا مفرَّ سوى في الفترة من الواحدة بعد منتصف الليل وحتى السابعة صباحًا.

والحل؟ توسيع الطريق بإلغاء الجزيرة العريضة التي تتوسطه، إقامة كوبري أو نفقٍ عند مدخل الطريق الدائري، تخصيص مواعيد لسير النقل الثقيل بعد الثانية عشرة ليلًا وحتى السابعة صباحًا... خبراء التخطيط لن تعوزهم الحيلة. أنا وغيري من سكان المدينة، نحن من تعوزنا الحيلة كي نتجنَّب الازدحام ونحافظ على أعصابنا من الانهيار.

كنتُ في «مود كتابة» منذ أيام وأضعت الفرصة بالتفكير في مسألة السكن في مدينة العبور. فبدلًا من أن أستمتع بالعودة إلى البيت لقضاء الإجازة الصيفية وتخصيص وقت أطول للكتابة، رحت أغذِّي مشاعر النِّقمة من البعد والازدحام؛ البُعد عن بيت أمي والازدحام الذي بات يؤرقني كلما أردت الذهاب إلى مصر الجديدة أو النزول إلى وسط المدينة.

يا أله! كم تغيظني تلك الأفكار وتثير قلقي فأجدني عاجزة عن فعل أي شيء سوى التفكير في «الوضع»... وضع البيت في مكان يطوله العمران ويتطور يومًا بعد يوم لكنه يبعدني عن أحبائي وأصدقائي... ووضعي أنا كمهاجرة تفكر في الاستقرار في مصر وتتردد لهذه الأسباب ولغيرها في الإقدام على هذا القرار... هل أتنازل عن هذا البيت الذي بات مرادفًا لفكرة الاستقرار وأسكن في مكان غيره؟ وأين يكون هذا المكان؟ وكيف يمكنني التأقلم مع إيقاع الحياة في القاهرة؟ هل يمكنني الاستسلام لتبديد نصف الطاقة في العبور من مكانٍ إلى مكانٍ؟ وأنا من تشكو من الوحدة والعزلة هناك، هل أعود إلى هنا لأعاني من نفس الوحدة والعزلة بسبب حال المرور؟

المكان هو ما يؤرقني ويسلبني راحة البال، لا الزمن. فالزمن يمضي وليست لنا عليه سطوة، أما المكان فنستطيع أن نختاره؛ نختار البقاء فيه أو تغييره، نستطيع أن نُجمِّله ونزينه ونوسعه ونبنيه ونعمره ونستطيع أن نُهمله ونهدمه ونهجره.... المكان لنا عليه كلمة! نقول: كن فيكون بإرادتنا وطاقتنا... أما الزمان فله علينا كلمة، نستغله كما نشاء وهو لا يبالي... يمضي ولا يلتفت إلى الوراء. زحمة المرور في القاهرة ليست خانقة بسبب المكان، ولكن بسبب الوقت. الوقت الذي نقضيه في لا شيء، في انتظار أن تنفرج الأزمة فنتقدم عدة أمتار ونتوقف. نواجه بندول الساعة ولا نصدِّق. مضت عشرون دقيقة كاملة لكي نصل إلى كوبري المشاة الذي يبعد عن السيارة عشرين مترًا فقط؟ لا نصدق أن الحساب -حساب الزمن- عسير، وعَبَثي.

لكني أرى الأمل نورًا في نهاية النفق. الأمل في حال الجزيرة التي تتوسط الطريق والتي ذبلت أشجارها وتكسرت أرصفتها وتهدَّم سورها وغطتها هنا وهناك أكوام من الرمل والطوب والحجارة. هل تنوي الحكومة إلغاء الجزيرة؟ لو فعلت لكان قرارها صائبًا؛ لأنها بذلك توفر حارتين كاملتين للطريق، واحدة في كل اتجاه.

أسرح بتفكيري وأنا خلف الدركسيون، أراني وقد عدت إلى مدينة العبور في الصيف القادم، وأراني بعين الخيال أسير في الطريق الجديد وقد اتَّسع مسافة حارتين كاملتين، وأرى قانون المرور وقد ألزَم سائقي اللوريات بساعات محددة للسير، وأرى سائقي الميكروباص وقد التزموا بالسير في حارة واحدة إلى يمين الطريق، مثلما يلتزم الباص والتاكسي في كندا باليمين لضمان سرعة حركتهم وحركة المرور... لكني أصحو من حُلم اليقظة اللطيف هذا على كلاكس سيارة حشَرت مقدمتها عن يساري تريد أن تتخطاني رغم وجود الجزيرة، أشيحُ بيدي في المرآة الأمامية علامة الاستغراب فيعيد السائق الضغط على الكلاكس وهو «يُشوِّح» بكلتا يديه. هل تراه كان يَسبُّني في سره؟ أما عجيبة والله! زحام وضجيج وقلة أدب كمان؟!

الغريب أن الاحتكاكات الكثيرة التي تواجهني في أثناء السواقة، والتي تثير أعصابي أكثر من عشر مرات في المشوار الواحد، تختفي أو تكاد ما إن أصل إلى وجْهَتي؛ بيتي في العبور أو بيت أمي في مصر الجديدة. شيء ما يحيطني بغلالة من التفاؤل، يحميني من الغضب ويصد عني شر البَلية. أحب هدوء هذا البيت النائي، أحب مصادر الضوء فيه، وزقزقة العصافير على أغصان شجرة المانجو الوحيدة التي تتوسط الحديقة. وأحب صخب الميدان الذي تطل عليه شقة أمي. مثل أمواج عاتية تتكسر على صخور الشاطئ تأتي الأصوات مختلطة عارمة، تتوقف فجأة عند الشيش المغلق ثم تتفتت، تصبح مجرد وشوشة حياة، وشوشة تطمئن وتسكن القلب، تغسل عنه وحدته.

أشتري هذا الضوء، هذه الشجرة، تلك الأصوات، بساعات طويلة أقضيها في السفر وساعات أخرى أطول أقضيها في العبور من بيتي إلى بيت أمي. بحساب المكسب والخسارة أجدني رابحة أحيانًا، فأشتري المزيد من الضوء والضوضاء وأظل أفكِّر في قدر العبور الذي بات وكأنه لا فكاك منه.

حقل البطاطس

تذكرت صبري موسى منذ يومين ووجدتني أُخرِج كتبه من المكتبة وأُزيل عنها الأتربة بشيء من الحنين واللهفة. لم أكن في حاجة لإعادة قراءة جانب منسيٍّ من الأدب المصري الحديث، فما زالت روايات صبري موسى حاضرة في أذهان الناس بعناوينها الجذابة، «فساد الأمكنة»، «حادث نصف المتر»، «السيد من حقل السبانخ». وما زالت كتابته القصصية رغم طابعها الصحفي تثير الدهشة. لكني تذكرت روايته الأخيرة تحديدًا بمناسبة حقل آخر من زمن آخر، بدا وكأنه قادم من زمن المستقبل الفضائي الذي وصفه صبري موسى في «حقل السبانخ». كنت في السيارة على طريق صلاح سالم، وكنت أفكِّر بشيء من اليأس الهادئ في حال الناس وحال السياسة وتقلباتها وفساد الأذواق والأمزجة وتحول المعارك الصغيرة بين الناس لمعارك مخيفة وكأننا على حافة حرب أهلية... لم يخرجني من أفكاري سوى انتباهي المفاجئ لسيارة كادت تتوقف على يسار الطريق رغم أن السير البطيء مُخصص له يمين الطريق، فضلًا عن أن أنوار الفرامل فيها كانت معطلة. تجنَّبت التصادم في اللحظة المناسبة وقد انخَلَع قلبي ووجدتني أقول في نفسي: إن الحياة هنا تشبه الحياة في حقل بطاطس! باعتبار أن البطاطس مرادف في اللغة اليومية للجهل الأرعن والفوضى. ثم أضافت نفسي: وها هو الحقل قد تعفّن ونضح جوفه بما فيه من عفنٍ.

ظلت الصورة عالقة بذهني طوال الطريق، وبدأت تتخذ شكلًا كابوسيًّا وأنا أقترب من البيت. بطاطس تشبه أنوف الناس التي تعودت الروائح الكريهة فاستطالت وتضخمت ونَمَت على «طرطوفتها» الدمامل والبثور. تشبه ألسنتهم التي تعودت «التطجين» ولغتهم اليومية التي كانت تضرب بها الأمثال في الرقة والتهذيب فإذا بها تتحول إلى لغة ثقيلة فظة. بطاطس مهروسة كأدمغة الجهلاء التي تعودت الكسل وكفَّت عن التفكير فأصبحت مسخًا هلاميًّا، يستوي في ذلك المتعلم منهم وغير المتعلم. بطاطس تعمل في الخفاء مثل جذور لا تنبت لها أوراق لكنها خبيثة تأكل من خير الأرض ولا تنفع أحدًا غير نفسها والناس جميعًا يرونها ويعرفون ضررها لكنهم لا يجتثونها ولا يخلِّصون الحقل منها. حقل بطاطس تعفن ولم تعُدْ رائحته الكريهة تخفَى على أحد، حقل تزرعه السُّلطة بأشكالها؛ فكرية وسياسية ودينية، وترعاه تحت غطاء المعرفة والحرية والفضيلة، ترعاه بحكمة رعناء ووجه تغطيه الندوب.

أعدت قراءة «السيد من حقل السبانخ» لأني أحتاج إلى التفكير في حدوتة هذا الحقل، حقل البطاطس العالمي، وكيف تبدو صورته أكثر تشوهًا في مصر. حقل جديد يعيش فيه الإنسان هنا وفي العالم مثل حيوان ناطق لا يفكر، عقله مبرمج على الطاعة، لسانه مبرمج (في أفضل الظروف) على إبداء الرأي دون سندٍ من علم أو معرفة، ووعيه رهن إشارة البث التلفزيوني. عدت لقراءة الرواية باستمتاع عندما وجدتها تستدعي تساؤلات قديمة تتجدد بتجدد الظرف الاجتماعي

واللحظة التاريخية الملازمة له. لكني عدت أقول بتفاؤلي المعهود: رغم أن اللحظة الراهنة «بطاطس»، فإنها لحظة منتشية بجرأة من لم تنجح الآلة بعدُ في هرسهم.

المشكلة التي تواجه «السيد هومو» في رواية صبري موسى هي مشكلة مثقف نهاية السبعينيات: حرية الفكر والاختيار في مجتمع تمت برمجته بالكامل لخدمة «النظام» (بلغة الفترة)، ظاهره ديمقراطي وباطنه توتاليتاري مستبد. السيد هومو يقرِّر أن يخرج عن المسار وأن يستكشف العالم القديم، عالم ما قبل النظام، وتنتهي الرواية بخروجه من «عصر العسل» الذي صوره له النظام على أنه أفضل عصور البشرية، ثم عودته الخائبة إليه بعد أن أخافته الحياة البدائية خارجه. يبقى هاجس الرواية الأول في كيفية المصالحة بين النظام والحرية من خلال شخصية رجل السبانخ، العامل والمثقف المتمرد، المتردِّد.

يشبه تمرد البطل هنا تمرد الأبطال في أفلام مهمة من نوعية الخيال العلمي مثل فيلم فرانسوا تروفو «فهرنهايت ٤٢٥». يناقش تروفو نوع وقيمة الثقافة السائدة، والبطل في فيلمه يقاوم النظام من أجل حق القراءة، ويُصر على اقتناء الكتب رغم منعها من التداول واعتبار القراءة جريمة يُعاقب عليها بالحبس والحرق. وفي فيلم المخرج بيتر هنكة «ألعاب مضحكة» نرى من خلال عملية قتل غير مبررة يقوم بها شابان لأسرة بأكملها كيف يتم الترويج للعنف يوميًّا عبر شاشات التلفزيون حتى اعتاده الناس ولم يعد أحد يتساءل عن أسبابه وضرورة عرضه. ورغم أن الفيلم ليس من نوع الخيال العلمي فإنه يفرض على المتفرج «رؤية» العنف باعتبارها فرضا مستقبليًّا لا سبيل للإفلات من أسره. وهو نفس ما يراه ستانلي كوبريك في فيلم «البرتقالة الميكانيكية» حين يعتبر مشكلة «فرض الرؤية» شكلًا من أشكال القهر، حيث تتم السيطرة على البطل بتثبيت مآقيه وتعريضه قسرًا لمشاهد مصورة شديدة العنف تُصيبه بحالة من الجنون.

بين حدود العنف الجماعي وعدم القدرة على التفكير الحر والعجز عن الفعل البنَّاء تقع حقول كاملة من البطاطس، جذور متعفِّنة وقلوب مهترئة وبثور. المشكلة لا تكمن في الحقل ولا في الجذور، المشكلة في الزُّرّاع الذين تشغَلهم حروبهم الصغيرة التافهة عن الانتباه إلى الحروب الكبيرة الأهم، ضد الجهل وضد سيطرة النخبة المتسلطة وضد خطاب التخلف الديني والحضاري الذي يروج له الأدعياء والدُّعاة، وضد الاستخفاف بعقول الناس واستنزاف طاقتهم الخلاقة في قضايا مزورة من نوعية مكافحة تدخين الشيشة (تحديدًا عند البنات!!!).

بين حدي العنف السياسي والجهل الفكري، يقع الجحيم الذي تصوره السلطات الثلاث على أنه الجنة. ولو فكر الناس لأدركوا أن ما هم فيه من جحيم ما هو إلا ثمرة تخاذلهم وجهلهم، وأن السلطة قد اختارت عبْر العصور، أينما وجدت وكيفما استقرت، حماية هذه الثمرة وتغذيتها. هكذا تحدث فردريك نيتشة وميشيل فوكو وإدوارد سعيد وغيرهم في نقد السلطة، ولو أننا قرأنا وفهمنا لبدأنا في السعي لحل جذري يخرجنا من هذا الجحيم.

مايوه غير شرعي

لأول مرة أقضي أيامًا في قرية بالساحل الشمالي. تدريجيًّا لم أعُد أستمتع بالذهاب إلى شواطئ الإسكندرية للسباحة وقضاء إجازة قصيرة على البحر. أحد أسباب هذا العزوف التدريجي هو كَوْني «دَقّة قديمة»، ما زلت أرتدي المايوه التقليدي كعادتي منذ ما يقرب من أربعين عامًا. شيئًا فشيئًا أصبحت شواطئ الإسكندرية والعجمي تستحي من المايوهات التقليدية وانسحبت الكثير من النساء غير المحجبات للشواطئ الخاصة. لكن فصائل متنوعة من المتشدِّدين غزت الشواطئ الخاصة أيضًا وفرَضت عليها صبغة دينية ظاهرها الفضيلة وباطنها التخلف والرجعية. استقر نوع من الغوغائية على الشواطئ العامة وبات من المستحيل ارتيادها، واستقرت مظاهر التدين الجديدة على الشواطئ الخاصة، واقتصر الترفيه بالنسبة لي على ارتياد المقاهي والمطاعم والفسحة على الكورنيش. أصبحت السباحة بالمايوه المكون من قطعة واحدة أو من قطعتين مغامرة غير محمودة العواقب في نفس الأماكن التي كانت منذ سنوات قليلة مفتوحة لي ولغيري.

قال الأصدقاء: الحل في قُرى الساحل الشمالي. سمعت الكلام واستأجرت شاليه في قرية هادئة أنيقة، مُمنِّية نفسي برحلة أستعيد فيها بهجة الماضي وبراءته. ذهبت في اليوم الأول إلى حمام السباحة مع أسرتي الصغيرة، زوجي والولدين. أحسست فور دخولي منطقة الحمام أني «أقلية واضحة». عدد قليل جدًّا من النساء يرتدين المايوه التقليدي، فيما ترتدي الأغلبية الساحقة رداءً يشبه زيّ «بات-وُمَن». فهمت فيما بعد أن الناس يسمونه «المايوه الشرعي»، وهو مكون من أربع قطع أو أكثر ومن عدة طبقات تغطِّي الجسم كله ولا تخفي استداراته. أخذت صورًا لأنماط المايوه الشرعي وأشكاله للذِّكرى وللتاريخ. طبعًا لا أحد يعرف من أطلق عليه تلك التسمية ومن أعطاه الشرعية وسحبها من كل المايوهات الأخرى. وطبعًا كنت محط أنظار المتشدِّدين والمتشددات من المؤمنين والمؤمنات، خصوصًا أن ساقي وذراعي لا يغطيها السترتش الأسود وأن شعري لا يتوارى تحت بونيه الضفادع البشرية.

قضيت نحو ساعتين على حمام السباحة قبل الذهاب إلى الشاطئ. قريبًا من الشاطئ يوجد حمام سباحة آخر لأصحاب الشاليهات القريبة من البحر وهم فيما يبدو من الأثرياء. هناك وجدت عددًا أكبر من السابحات بالمايوه التقليدي وعددًا أقل من السابحات بمايوه «بات-وُمَن». قد تكون المسألة طبقية، لست متأكدة. فيما مضى كانت الفروق الطبقية تظهر بين المايوه من قطعة واحدة والبكيني. القطعة الواحدة لبنات الطبقة المتوسطة والبكيني لبنات الطبقات الأعلى والمتشبهات بهن. أما في الشرائح الشعبية فالجلابية كانت وما زالت لباس البحر بلا منازعٍ. اليوم انتشر المايوه الشرعي بين أفراد الطبقة المتوسطة والعليا، واستقر الذوق العام على هذا الشكل المضحك من أشكال التحجب.

قلت لنفسي: لكن هذه الظاهرة الجديدة من علامات انحسار موضة الحجاب التي انقضت على

مجتمعنا في الثلاثين سنة الأخيرة. المايوه الشرعي ظاهرة تبعث الأمل في انتهاء موضة حجاب النساء أو على الأقل إثارة النقاش حول شرعيتها. هو في رأيي دليل على أننا في فترة وسيطة قد تُسفر عن تراجع تلك البدعة التي استقرت بعد عودة المصريين من السعودية والخليج بأفكار وقيم تخص مجتمعات أصولية ورجعية. اليوم يبدو وكأن مشكلة المصالحة بين قيود الحجاب ومتعة السباحة قد تمَّ التحايل عليها من جانب النساء بفكرة المايوه الشرعي، فيما يبقى سؤال الحجاب كفريضة دينية معلقًا بلا نقدٍ تقدُّمي وبلا مراجعة علمية.

من ناحية أخرى، بدأت أعداد متزايدة من المصريات يتساءلن عن شرعية الحجاب ويفضلن عليه فكرة الاحتشام وكأنهن تذكرن فجأة تاريخهن الحديث، تاريخ الجدات المحتشمات على طريقة هدى شعراوي وأم كلثوم. تزايدت أعداد البونيه الذي يكشف الرقبة، والجيبة التي تقف عند منتصف الساق، وظهر البَدِي والبنطلون السترتش بشكل يستعيد موضة السبعينيات ويكاد يضاهيها في الجرأة والخلاعة والغنج. لم يَعُد هذا النوع من الحجاب دليلًا على الفضيلة، بل مجرد موضة لا ترتبط بالأخلاق ولا ترفع من قيمة من يتَّبعها، خصوصًا حين تطفح قلة التربية أو انعدامها على سطح الوجه والجسد في صورة حركات وإشارات.

المايوه التقليدي يلفت نظر الناس ليس لأنه فاقد شرعية، ولكن لأن الناس تعودوا محاكمة بعضهم بعضًا ولم يتعلموا قيم التسامح والتجاور والاختلاف. بعد ثلاثين عامًا من فرض الإيمان على المجتمع لم يُفلح الإيمان في ترقية أخلاق الناس وسلوكهم. ما زال الناس يعتبرون النظر فعلًا مستباحًا، والتعليق بالغمز أحيانًا وبالكلام الصريح أحيانًا أخرى حقًّا مكتسبًا، يعتبرون أن كل من لا يتبع القطيع هو موضع فرجة وتقييم من القطيع حتى لو كان هذا القطيع ناقص تربية وتعليم وثقافة. الغريب أن الناس في كندا يتجنَّب بعضُهم النظر إلى بعض في الأماكن العامة والشوارع كشكلٍ من أشكال «غض البصر» واحترام الآخرين. يعتبرون أن لكل إنسان مساحة تخصه وحده ليس من حق أحد التطفل عليها. يؤمنون بذلك ويطبقون القاعدة. أشعر أحيانًا أن الناس أكثر خُلقًا وأدبًا في كندا منا هنا في مصر، وأن الحياة في مجتمع يؤمن بالأخلاق أفضل من الحياة في مجتمع مؤمن بلا أخلاق.

على حمام السباحة، وجدت نفسي في مواجهة مستترة مع كتلة من الناس لا أعرفهم ولا يعرفونني؛ ولأنهم ينظرون إليّ رحت أنا أيضًا أنظر إليهم، لا يغضون البصر عني ولا أغض البصر عنهم. تحولت منطقة الحمام إلى ساحة حربية، جماعة ضد أفراد. النساء ينظرن بإمعان وتحفُّز لا يخلو من شماتة (باعتبارهن الأفضل والأكثر احتشامًا)، والرجال ينظرون بجرأة وشَرَهٍ (باعتباري سمحت لهم بالنظر). لكن المواجهة الحقيقية ليست بين الناظر والمنظور إليه، ولا بين المايوه التقليدي والمايوه الشرعي، فكلاهما يملك الحق في الوجود، المواجهة الفعلية بين جماعة تؤمن بالحق في الاختيار وحرية التعبير وبين جماعة تُنكر هذا الحق باسم الفضيلة والدين. المسألة

مسألة حقوق أساسية مُهدرة مثل حق التعبير (بالكلمة والفعل والجسد) وحق التفكير وحق الاختلاف... حقوق أساسية لا ينادي بها إلا الحالمون بعالم أفضل، مِثْلي.

سيدات مصر الجديدة

لم أشعر بهذه الوحدة من قبل. وحيدة وسط الناس، معهم، بسببهم. أجلس في مقهًى بالكوربة، أنتظر أحد الأصدقاء، لم يأتِ الموعد بعدُ، وصلت مبكرة. الساعة قاربت التاسعة مساءً والمقهى مكتظٌّ بالناس. ولأني وحدي، راحوا ينظرون إليَّ ورحت أنظر إليهم. بعضهم يبتسم عندما تلتقي أعيننا والبعض الآخر يغض الطرف بعد وهْلَة عندما ينتبه -وقد ثبَّت بصره طويل باتجاهي- أن التحديق هكذا في الأغراب لا يليقُ. مقهًى في مصر الجديدة، أشعر كأني أعرف هؤلاء الناس. طريقة ما في الكلام، في اختيار الملابس، في تنوع الأذواق بين محجبات وغير محجبات، نوع من الهدوء يعلو الوجه، ضحكة رائقة تظل معلقة بالوجه زمنًا... كأن روحًا واحدة تجمع بين الناس. أقول لنفسي ذلك لأطمئنها على إمكانية الثبات، وفرصة التوحد مع الغرباء... عند هذا الحد يتوقف تفكيري وأراجع نفسي، أكره ثبات الهويات، والسنتمنتالية التي يوحي بها هذا الثبات، لكنه تداعي الأفكار الذي لا رادع له سوى التأمل والتحلِّي بالصبر والحكمة.

وربما كنت واهمة... مَن يدريني أن هذه الروح موجودة فعلًا؟ أشك في حقيقة حَدْسي، ويزداد الشك حين يبدو الرأي الناتج عنه رأيًا «عاطفيًّا»... تلك الروح التي أراها منطلقة منسابة محلِّقة في فضاء المكان ربما هي ما يميز أهل الحي، وربما أنا من أتخيلها، أبحث عنها، أتوق إليها... واحة من الذوق الرفيع في صحراء غابت عنها قواعد اللياقة والذوق والحس المرهف والتواضع. تأتيني أصوات سيدات مصر الجديدة رقيقة مختلطة بكلمات أجنبية، إنجليزية أو فرنسية، أصوات فيها لَكْنة، إشارات مصاحبة باليد تُذكِّر بإيماءات الخواجات، ابتسامات وانعطافات وحركات بالرأس تعني الموافقة أو الامتعاض أو التعجب رأيت الأوروبيين يستخدمونها للتعبير عن مشاعرهم.

يتردد اسم «مي» على مائدة مجاورة، تجلس إليها أربع سيدات بصَحبتهن طفلان. الصغير نائم، والكبير يشترك من وقت إلى آخر في الحديث. السيدات من أعمار مختلفة، أصغرهن ربما كانت في نهاية الثلاثين، وأكبرهن قاربت الستين. الشَّعر مُعتَنى به دون مبالغة، معقوص على هيئة ذيل حصان أو مقصوص قصيرًا، بالكاد يغطي العنق. ثلاثة يرتدين البنطلونات، وواحدة -أكبرهن سنًّا- ترتدي جونلة بيضاء بنقوش نباتية زرقاء. رقيقة تلك النقوش، ملابس قديمة لكنها تصلح لمساءات الصيف الهانئة... ينادينها «طنت». سيدات ممتلئات، وخفيفات على الرغم من ذلك، يبدو أنهن يعتنين بالبيت بمساعدة خادمة، يعملن ولا شك في شركة أو بنك أو في إدارة محلٍّ أو مكتبة تمتلكها الأسرة في الكوربة، يذهبن إلى النادي للتريُّض، يجتمعن من آنٍ إلى آخر معًا، ليس كثيرًا، فطاقة الحديث بينهن عالية، والأحضان التي تبادلنها قبل الجلوس إلى المائدة تدل على أن وقتًا قد مرَّ منذ آخر لقاء لهن مجتمعات.

الولد الكبير يقول شيئًا لا أتبيَّنه، يضحكن جميعًا وتربت أقرب سيدة على كَتِفه. يبدو أنه ابن

«مي». يجلس بينها وبين السيدة الأكبر، تلك التي ترتدي الجونلة. يدور الحديث بحماس حول ماتشات كرة القدم الأخيرة، يحللن ما حدث ويناقشن تحركات اللعِيبة بحذق العارفين. ترى هل الأزواج هم مصدر هذه المعرفة أم أن اهتمامهن بالكرة اهتمام أصيل؟ الولد سعيد بالنقاش، يشرح وجهة نظره، يستمعن إليه بشغف. وبالذات «طنت»، تبدو سيدة لطيفة فعلًا. آه، نسيت أن أقول: إنهن لا يضعن المساحيق، الجو حار في الخارج، والموقف لا يستدعي الزينة. إحداهن تضع في إصبعها خاتمًا «سوليتير»، هو زينتها الوحيدة، الأخريات امتنعن عن استخدام الجواهر، يضعنها في شكمجية مخبَّأة في البيت، أو في خزينة البنك، ربما يخرجنها في عُرس ابنة «طنت». فقط الساعة الذهبية، أو محبس الدبلة الألماظ يلمع هنا وهناك لمعة لا تخطئها العين، لمعة أصيلة.

طال الانتظار وطالت «بَحْلقتي» في السيدات الجالسات إلى المائدة المقابلة. لم ينتبهن بعد لذلك، ولو انتبهن فقد لا يروقهن سلوكي. «مي» هي مَن تجلس بمواجهتي، كنت أريد أن أُحييها بإيماءة من رأسي، بسبب اسمها. لكنها لا تعرفني، ما يصحّش! أعود لوحدتي وتأملاتي الصامتة، يخالجني شعور مبهم بالانتماء إلى هذا المكان، كأني آتي إلى هنا كل يوم بانتظام، كأني زبونة قديمة، منذ عشرين عامًا، من زمن ما قبل الهجرة. لو تأخر صديقي أكثر من ذلك، سأرحل. لكني لا أرحل، أفتح الكمبيوتر وأروح على الإنترنت. تسلية الشباب في المقهى، تسلية لم تعُد تسليني. نصف الشباب الجالس هنا معه لابتوب، مثلي. أحب هذا الشعور بالاتصال، بالتشابه مع آخرين، في عزلتنا أمام الشاشة. اللابتوب مؤشر طبقي. يؤسفني ذلك، ولكن هل ثمة خروج من أوهام الطبقة أو التخلص من علامات وجودها الطاغية؟

الغريب أني في نفس هذا الصباح كنت في زيارة لحمام الملاطيلي ولصاحبه الحاج زينهم. الحمام يقع في شارع أمير الجيوش. جلست مع الحاج زينهم ساعة أو يزيد، يحكي، أستمع، أسأله وأدوِّن ملاحظات. دخلت الحمام لزيارته، دعتني البلانة للاستحمام، اعتذرت بلطف وأجلتها للمرة القادمة... رأيت حول المغطس عددًا من السيدات عاريات والبلانة تقوم بتكييس الأجساد، بدينات ونحيفات ومغناجات، يضحكن، يتحدثن معي، لا أسمع جيدًا بسبب الصدى الذي يرن في المكان... في الغرف الداخلية، عروس تستعد للعرس... وفي الساحة الداخلية، نساء ينتظرن... عالم يخيفني لفرط غرابته ويثير خيالي لنفس الأسباب. لا أعرفه هذا العالم ولا يعرفني، أعرف بوجوده فقط، ويعرف بوجودي، وكلانا لديه تصورات صحيحة أو خاطئة عن الآخر. عالمان نقيضان، الليل والنهار، وأنا من أنا بينهما، العبور من أحدهما للآخر مثل عبور البحر المحيط. لكني هنا الآن، في المقهى الأنيق بالكوربة، كعادتي كلما عدت إلى مصر (مصر العشة واللا القصر؟!) أسرح بخيالي بين طبقات السماء السبع، ولا أجد مكاني إلَّا هنا، في مصر الجديدة، في وحدتي، مع الكتابة.

مشاهد من قاعة التدريس

سألت ذات مرة طلاب السنة الثالثة في قسم الدراسات العربية بجامعة أوتاوا: ما هي العلمانية؟ أجابت إحدى الطالبات العربيات في هستيريا: العلمانية هي الإلحاد، هي الكفر بوجود الله، هي بدعة غربية يريد الاستعمار فرضها على الشعوب العربية والإسلامية. استمرت حالة الصراخ عدة دقائق وسط ذهول الطلاب الآخرين في الصف. قلتُ لتهدئة النفوس وخوفًا من أن يزداد تشنج الطالبة المؤمنة، إن العلمانية ليست كفرًا، بل هي فكرة تُنادي بأن ينفصل الدين عن الدولة، أن يكون الدين أمرًا خاصًّا بالبشر وأن ينفصل عن السياسة، ولكن الحركات السياسية ذات الصِّبغة الدينية لا تعجبها هذه الفكرة؛ لأنها تسعى إلى الحكم (مثلها مثل أي حركة سياسية أو حزب سياسي) باستخدام الدين أداة للسيطرة على الأتباع والموالين وتجنيدهم لخدمة الكهنة. وما دام الكهنة «يلعبون سياسة» ويتخفون في ثوب السياسيين فإن قوانين الصراع السياسي تنطبق عليهم فيما تزول عنهم صِفة القداسة التي يستمدونها من غِطائهم الديني.

قالت طالبة أخرى: ولكن الدين هو المصدر الأول للمعرفة وهو سبب الصراع بين الغرب والشرق. قلت: لا الدين هو المَحَك الرئيسي في تقييم الناس ولا الثروة ولا القوة ولا العلم ولا يحزنون إن لم تكن إنسانية الإنسان مُتحقِّقة من خلال التسامح والتآخي والاعتراف بأننا بشر ومختلفون، لسنا أنبياء ولسنا دعاة ولسنا أوصياء ولسنا (وهذا هو الأهم) خير أمة أخرجت للناس، بل نحن ناس مثلنا مثل غيرنا وإنسانيتنا هي التي تربطنا بالأرض وبالسماء. على مستوى الفكر والمبادئ، لا العلمانية إلحاد ولا هي فلسفة عدمية جاءت للقضاء على الدين ولا هي إلغاء لحق الفرد في التعبير الحر عن إيمانه وممارسة طقوسه الروحية. الثقافة العلمانية بمعناها الواسع تُنادي بنشر العلم والفلسفة، تُدافع عن الأدب والفن والفكر الحر، وهي قادرة على إنقاذ البشرية من الدمار إذا أردنا نشر الوعي الثقافي الذي يُشكل الدين جزءًا منه وليس مصدره الأول.

الصراع الذي تحدَّثت عنه الطالبة بحماس صراع سلطة وصراع فِكْر وليس صراع روحانيات. والمبادئ التي لا خلاف عليها مثل التسامح والعدالة والتكافل لها مصادر مختلفة يستمدها الناس من الدين أو من الفلسفة أو من العلم، المهم في النهاية أن يتفقوا على أنها ضرورية لسلام البشر ولمستقبلهم، المهم أن يعملوا بها ويكفوا عن نشر الخراب والحروب الوحشية باسم الديمقراطية على طريقة الأمريكان أو باسم الدين على طريقة الأحزاب الدينية السياسية. كلاهما طرف متطرِّف لا يمثل المتن الإنساني، وكلاهما رضع من لبن واحد، لبن التعصُّب والعدوانية والدمار.

من الأخطاء الشائعة في أبحاث الطلاب العرب والأجانب على السواء في صَفِّ الثقافة العربية بعض العبارات والجمل الفضفاضة التي يستهل بها الطلاب أبحاثهم، من نوعية: «المرأة في العالم العربي تعاني من الاضطهاد والتخلف والقهر»، أو: «الدين الإسلامي هو أهم عناصر الثقافة

العربية». عادة ما تتبع تلك العبارات فقرة كاملة مكونة من سلسلة من الكليشيهات والأفكار المكررة المكتوبة بلغة صحفية لا تليقُ بأصول البحث العلمي ولا تعبِّر عن فكر حقيقي، وإنما عن تخبُّط الطالب وعدم قدرته على صياغة أفكاره بشكل منهجي.

تصاحب هذه البدايات الركيكة خطوط باللون الأحمر وتعقيب يتكرر دائمًا من جانبي: تجنب التعميم، ضع العبارة في سياقها التاريخي. الحديث عن «المرأة العربية» بصفة مطلقة يقودنا إلى تعميمات خطيرة تنكر خصوصية الثقافات المحلية والفروق الطبقية والمعرفية بين البشر ودوران عجلة التاريخ والتأثيرات الجغرافية في داخل الوطن الواحد. ثَمة فروق جوهرية تجعل أوضاع النساء في السعودية غير أوضاعها في سوريا أو في مصر، وثقافة سيدات الطبقات العليا من أثرياء المجتمع مغايرة لثقافة العاملات والفلاحات والبدويات، وأوضاع النساء في جبال الأطلس بالمغرب غير أوضاع مثيلاتهن في الجزائر أو لبنان أو اليمن.

لو وضعنا كل هذه الاختلافات في ميزان التاريخ لظهرت مؤشرات وعلامات كثيرة تؤكِّد خصوصية التجارب النسائية في مراحل تطورها المتنوعة منذ ظهور ما يمكن أن نسميه بنهضة الثقافة العربية وحتى اليوم. ولو تأملنا أكثر في فكرة «الاضطهاد والقهر» المنسوبة لوضع النساء في المجتمعات العربية حصريًّا لأدركنا أن أشكال هذا القهر تتغير وتتطور، تنحسر أحيانًا في بعض المناطق وفي أزمنة محددة، وتنتشر أحيانًا أخرى بشكل يدعو للمطالبة بالثورة وضرورة التغيير.

لو أردنا تطبيق قانون «رفض التعميم» وحذَّرنا من الوقوع في فخِّ الأفكار المطلقة بكافة أشكالها، لواجهتنا عدة مشكلات أهمها تأثير الظرف الحالي على طريقة الطلاب في تقييم الأمور وتأثير وسائل الإعلام على رؤيتهم للعالم. على سبيل المثال: يمثِّل العرب والمسلمون في كندا ما يوازي ٤٪ من تعداد السكان. وعلى الرغم من ضآلة حجم الجاليات العربية والمسلمة، فإن الحديث عن العرب في وسائل الإعلام يفوق بمراحل كثيرة الحديث عن الجاليات الأخرى ومنها الجالية الآسيوية مثلًا، وعادة ما يلجأ الإعلاميون إلى نفس التعميم مكتفين بعدد من الكليشيهات يرددونها كالبَبَّغاوات عن «قهر المرأة العربية» أو «الإرهاب الديني» أو «ضرورة فرض الديمقراطية».

في كل مكان ذهبت إليه لإلقاء محاضرة عن منحًى من مناحي الثقافة العربية، طُرحت عليَّ أسئلة عن «المرأة العربية». هكذا، بشكل مطلق. وكنت دائمًا مضطرة إلى أن أقلب السؤال على السائل مجيبة بأننا لا نستطيع أن نتحدث عن ملامح ثابتة وواحدة للمرأة الأمريكية أو المرأة الأوروبية... فلماذا نتصور أن هناك ما يسمى بالمرأة العربية، وكأن ملايين النساء في العالم العربي مجرد كيان واحد أصم ثابت، زي موحد وعقلية متحجرة؟!

في مصر لسنا معصومين من نفس الأخطاء الناتجة عن التعميم، سوى أننا نرصدها في غيرنا ولا نرصدها في أنفسنا. ما نرفضه من تعميم عندما ينصب علينا أو ضدنا، نمارسه نحن بدورنا

عندما يصبح التعميم وسيلتنا في الدفاع عن أنفسنا. والمثال الأكبر على ذلك هو ما لمسته في موقف قطاع لا يُستهان به من أبناء الطبقة المتوسطة فيما يخص أحداث غزة الأخيرة. رأيت وسمعت وتعجبت من نمو الشوفينية (التعصب العرقي) لدى بعض المصريين الذين التقيت بهم في رحلتي الحالية لمصر، ولا شك أن للإعلام دورًا في ذلك رغم أن النقد ينصبّ أحيانًا على الحكومات العربية فيُعمِّمه الناس على شعوب بأكملها.

فبراير ٢٠٠٩: في أثناء رحلتي إلى القاهرة سمعت البعض يقول: إن الفلسطينيين يستحقون القصف الوحشي على غزة؛ لأنهم يكرهون المصريين! وسمعت البعض الآخر يقول: إنهم نهبوا البلد وإننا لا يجب أن نعطيهم الأمان! يتلو ذلك سلسلة من التعميمات الأخرى عن العراقيين واللبنانيين والسعوديين وغيرهم لا تخلو من طرافة... فالعراقيون (وكأن الملايين منهم شخص واحد) هم أهل نفاق، واللبنانيون شعب بلا أخلاق ولا فضيلة، والحروب التي توالت عليهم حروب هم مَن صنَعها؛ ولذلك يستحقون عاقبتها، والسعوديون كانوا مجرد رعاة غنم لولا ظهور البترول ونحن الذين علَّمناهم وساندناهم حتى ركبونا... وكل العرب فضلًا عن ذلك يكرهوننا، نحن المصريين، ويغارون منا ويريدون تحطيمنا. كلهم في مقابل كلنا... هم في مقابل نحن، لا فرق بين موقف أفراد وبين شعب بأكمله.

والحقيقة أن هؤلاء الذين يتحدثون بصيغة التعميم خائفون، ينطوي خوفهم على مشاعر متضاربة من الغيرة والشعور بالنقص (بعد سنوات من العمل في العراق أو السعودية أو الكويت) والخوف من قلة الموارد أو ندرتها (هو احنا ناقصين لاجئين!) والفخر الكاذب بأمجاد صنَعها أجداد لم تعد تربطنا بهم أية صلة، فمصر من وجهة النظر الشوفينية هي مهد الحضارات... أما حضارة الفينيقيين وبلاد ما بين النهرين فلا نريد أن نعرف عنها شيئًا، وإن عرفنا يجب أن يعترف الجميع لمصر بالصَّدارة... ألا يشبه هذا أقوالًا خطيرة سمعناها كثيرًا ولم نناقشها إلا نادرًا؟ ألَا يقودنا هذا التعميم المجحف إلى مزيد من التعصب ضد شعوب تجمعنا بهم أواصر تاريخ قديم وصلات نسب متشابكة؟ ألَا يجدر بنا أن نكره في أنفسنا ما نكرهه في غيرنا؟ إذ كيف نرفض أن يعتبرنا الأوروبيون كتلة واحدة ونحن من نعامل العرب جميعًا كأنهم كتلة واحدة؟

إذا كنا ندافع عن أنفسنا في الغرب ضد نظرة الغربيين التسطيحية لنا، فلماذا عندما نشعر في بلادنا أننا مصدر قوة ننظر بنفس النظرة التسطيحية إلى إخوتنا في العروبة؟ أو لو أردنا أن نتجنب كلمة «عروبة»... لإخوتنا في الإنسانية؟؟؟ إن ثنائية «نحن وهم» التي انتقدها إدوارد سعيد بشدة في كل كتاباته تعتبر قانونًا ومبدءًا هامًّا من مبادئ التعامل مع الآخر. كان المستعمرون الأوروبيون يقولون: «نحن الأوروبيون» أصحاب القوة والعلم... و«هم العرب» أهل الضعف والتخلف... واليوم يقول بعضنا: «نحن المصريون» أصحاب الحضارة والكلمة المسموعة... و«هم العرب» يكرهوننا رغم أفضالنا الكثيرة عليهم.

«نحن» لسنا ملائكة و«هم» ليسوا شياطين. كل ما في الأمر أننا لا نؤمن بالمبادئ العامة إلا عندما تخدم مصالحنا الخاصة، فالتعميم مرفوض عندما يضر بنا، مقبول عندما نشهره سيفًا في وجه من نتصور أنهم أعداؤنا. وليتنا نفكر قليلًا فيما لا نفكر فيه، تاريخنا المشترك وأهدافنا المشتركة بدلًا من انقسامنا الذي يزيدنا ضعفًا وخذلانًا.

الهجرة

انتهى العام الحادي عشر للهجرة وبدأ عام جديد تختلط فيه أحاسيس اليأس والأمل؛ اليأس من عودة مطمئنة والأمل في التعود ولو مؤقتًا على الحياة في مكان والحلم بمكان غيره بعيد. العام الحادي عشر على هجرة بدأت بخُدعة، خَدَعت نفسي وقلت: إني بعد الحصول على الدكتوراه سأعود إلى مصر وأبحث عن عمل. حصلت على الدكتوراه وبحثت فعلًا عن عمل، ولكن ليس في مصر، في كندا. وجدته على الفور، ولم أكن لأجده في مصر بعد تجربة التدريس ثم الاستقالة من ثلاث جامعات مختلفة؛ باءت التجربة الأولى بالفشل بسبب اختراق الجماعات الإسلامية للمحيط الجامعي ومساندة العميد للجماعات ضد الأساتذة والمعيدين، والثانية بسبب ديكتاتورية رئيسي المباشر ويأسي من تغيير الأوضاع للأفضل، والثالثة بسبب التعقيد الإداري والقيل والقال وغيرة النساء من النساء.

في كندا، عملت في عدة جامعات قبل الانتهاء من الدكتوراه، وحصلت على وظيفة ثابتة فور الانتهاء منها. لم يكن هذا ليحدث في مصر. فالجامعات في كندا تعلن فعليًّا وليس صوريًّا عن الوظائف الشاغرة وتستقطِب أفضل المتخصصين في المجال المُعلَن عنه، ولا تعتمد على تعيين خريجيها كمعيدين باعتبار أن الخبرة لا يتم الحصول عليها إلا بالخروج من الجامعة التي تعلَّم فيها الطالب. مضت الآن ثلاث سنوات على تعييني في جامعة أوتاوا، في مناخ مهيأ للبحث والتدريس، في مجتمع يحترم حق الاختلاف وفي إطار قوانين تضمن حرية التفكير والتعبير.

لابد أن أكون سعيدة، فكلها أمور يحسدني عليها الكثيرون... ومنهم صديقي رجل الأعمال الذي قرَّر أخيرًا أن يهاجر إلى كندا مع أسرته، زوجة ناجحة في عملها، وأربعة أبناء في مدارس خاصة، يعانون جميعًا من الحياة في مصر بدرجات متفاوتة من الحِدَّة واليأس. الأب والأم يشكوان من وطأة العمل ومعوقات الحياة اليومية بكل تفاصيلها، بداية من العمل اثنتي عشرة ساعة يوميًّا لدفع مصاريف المدرسة، وحتى الفساد الإداري والانهيار الاقتصادي المصاحب له. والأبناء يشكون من سوء التعليم رغم كونهم يدرسون في أعرق المدارس الخاصة، ويعانون من صراخ الأم المتواصل وقسوة الأب المتزايدة وغيابه المستمر عن البيت.

تنتمي أسرة صديقي إلى ما يمكن أن نسميه الطبقة البرجوازية، لكنها برجوازية اسمية فقط لا تستطيع أن تحقق أيًّا من طموحات أفرادها الاجتماعية مهما ارتفعت أرصدة هؤلاء في التعليم والوظائف الحرة والبنوك، خصوصًا بعد أن سيطرت الأقلية الرأسمالية المتوحشة على مقاليد السياسة والاقتصاد واختفت الطبقة المتوسطة أو كادت في بحر متلاطم من الحراك الاجتماعي المستمر. صديقي يحلم ضمن ما يحلم بالعودة للانتماء إلى هذه الطبقة، إلى هذا النسق من الحياة، إلى نوع من الاستقرار والنجاح المادي والمعنوي في مقابل عمله ومجهوده. ليست لديه تصورات

خاصة عن العدالة الاجتماعية، وليس مثقفًا اشتراكيًّا بأي شكل من الأشكال، هو رجل يؤمن بالقيم الإنسانية العامة وبالدين الإسلامي في صورته البسيطة دون أدنى تعصُّب وبلا أي طموح سياسي. رجل يريد أن يُحقق في مقابل احترامه للقانون في الدنيا والدين قَدْرًا من الاستقرار النفسي لنفسه ولأسرته.

يبدو أن هذا لم يعد ممكنًا في مصر... أو أنه أصبح ممكنًا في أماكن أخرى من العالم تمثل مصدر الجذب الأول لهذا النوع من المهاجرين المضمونين. أسرة لديها طاقة بشرية كبيرة، مكونة من ستة أفراد، ولديها قدر من المال يسمح ببداية حياة جديدة، أسرة تستطيع تعمير الأراضي الشاسعة الخالية من السكان، لا يهم أن تكون مسلمة أو بوذية، لا يهم أن يتحدث أفرادها لغة أجنبية أو يتحدثون لغتهم الأم فقط، لا يهم أن يكون أبناؤها من الذكور أو الإناث، المهم أنها أسرة منتجة، وأنها لن تُشكِّل عبئًا على الدولة المضيفة، بل على العكس، ففي إطار اتفاقية الهجرة تفيد الدولة المضيفة وتستفيد. هكذا انتهت إجراءات هجرة صديقي وأسرته في زمن قياسي مقارنة بملفات مهاجرين آخرين تعثرت في الطريق أو طال انتظار الموافقة عليها أربع وخمس سنوات.

لكن صديقي متردد في السفر، ينتظر معجزة إلهية ليغادر البلد في خلال الأشهر الستة القادمة وإلا ضاعت عليه الفرصة. يتحدث كثيرًا عن صعوبة الهجرة بعد الأربعين، فهو لم يغادر مصر إلا نادرًا وفي رحلات عمل قصيرة إلى دول عربية شقيقة. صديقي منذ بدأ إجراءات الهجرة بدأ يجمع الآراء من أصدقائه ومعارفه. هناك من عنّفه لأنه سيترك وطنه في كرب شديد ويذهب ليعمر بلاد الكفار (باعتبار أن كل من هو غير مسلم كافر من وجهة نظر الجهلاء). وهناك من نصحه بالتريُّث حتى تكبر البنات ويتزوجن؛ لأن كندا بلد انحلال أخلاقي والبنات فيها على حل شعرهن (باعتبار أن بناتنا أشرف من بنات غيرنا بفضل الله وبفضل التشابه الرباني بيننا وبين النعام). وهناك من تردد كثيرًا قبل النطق بكلمة «يا بختك» ولم يتردد لحظة واحدة في طمأنة نفسه وصديقي معها إلى أن الأوضاع في سبيلها للتغيير وأن ليس بالإمكان أفضل مما كان، وأن ما نعرفه خير مما لا نعرفه. وهناك قلة قليلة من الناس بكوا وتحسروا على البلد التي تطرد خيرة رجالها، مشيرين إلى هجرة العقول وتسرب الأموال وسوء الأحوال وضرورة التغيير من الداخل والخارج والشمال والجنوب والغرب والشرق وهلم جرًّا.

صديقي أرسل إليَّ قبل نهاية العام رسالة تقطر يأسًا. ما العمل؟ أجبته برسالة تبعث في نفسه الأمل، مشيرة إلى تجربتي السابقة في الجامعات المصرية ثم الكندية. كتمت عنه حنيني الدائم إلى مصر وحلمي المستمر بالعودة. لم أقُل له إن المهاجر معلَّق بحبلين؛ حبل اسمه الوطن نتصوره حبل نجاة وهو حبل مشنقة، وحبل اسمه الوطن البديل نتصوره حبل مشنقة وهو حبل نجاة، والناجح منا هو من يستطيع الرقص على الحبلين. ربما ينتظر صديقي طويلًا قبل أن يتخذ قرار السفر، لكنه لو فعل لن يندمَ عليه أبدًا، مِثلي.

بعد إرسال المقال بالبريد الإلكتروني، أعدت قراءته كعادتي وترددت قليلًا وأنا أقرأ الجملة الأخيرة: «ربما ينتظر صديقي طويلًا قبل أن يتَّخذ قرار السفر، لكنه لو فعل لن يندم عليه أبدًا، مِثلي». هل هذا هو شعوري الحقيقي، عدم الندم على القرار؟ أم أنها مجرد محاولة لطمأنة نفسي وتعويضها عن الحنين الجارف إلى مصر بالانتماء إلى مكانٍ هو على النقيض التام منها، آمن وحُر ومتحضر؟

مشاعر الحسرة والندم لا تليق إلا بالضعفاء والمترددين، وأنا أعتبر نفسي امرأة قوية وحاسمة رغم أن القوة لا تعني الصلابة، والحسم لا يعصم من الخطأ. في بداية الرحلة لم يكن واضحًا في ذهني الهدف منها، ولم تكن فكرة الاستقرار في كندا جذابة بوجه خاص. لكن قرار الهجرة لم يكن إجباريًّا، كنت سعيدة في مصر رغم الأزمات الاقتصادية ورغم تداعي المؤسسات العامة واختلال موازين الأخلاق وزحف الأيديولوجية الإسلامية المتخلفة وتضييق الخناق على المثقفين والمفكرين. كما أني لم أعتبر نفسي في المنفى، فالعودة ممكنة والاختيار الأصعب هو التنازل عن رفاهية الحياة المستقرة في كندا من أجل استعادة الفوضى المحببة التي باتت تمثِّلها مصر في نظري.

لم أندم لأن الناس في أحلك عصور الجدب واليأس كانوا يهاجرون، كما هاجر الفلاحون من الريف إلى الحضر، وكما هاجر الرعاة بحثًا عن الماء والكلأ، وكما هاجر المستكشفون والرحالة بحثًا عن المجهول. تطول الهجرة أو تقصر، تُباعد بين الناس أو تؤلف بين قلوبهم، تُثير الأحقاد والمخاوف أو توحد بين الشعوب، في النهاية تأتي البركة من كثرة الحركة، وتتغير نظرتنا إلى المسافة يومًا بعد يوم، بما في ذلك المسافة بين الأديان وبين الثقافات.

المسافة بين مصر وكندا في خمسينيات القرن العشرين (عندما بدأت هجرة المصريين بشكل مكثَّف) قطعها المهاجرون بحرًا في أسبوعين ويقطعونها الآن جوًّا في عشر ساعات. لم يَعُد السفر مهلكًا كما كان في الماضي القريب، ولم تعد الهجرة مستحيلة لأننا لم نعد نتعامل مع المسافة بنفس الوجَل، ولم تعد الجذور فكرة تستدر تعاطفنا وتثني عزمنا عن الرحيل. حلَّت فكرة البدايات المتجددة محل فكرة الجذور، فالبدايات ممكنة ومتكررة تتجدد بلا كلَل ما دام الإنسان يحيا وما دام قلبه ينبض بالأمل.

ما حدث لي في السنوات الماضية وجعل للهجرة مغزًى ومبررًا أشد إلحاحًا من ذي قبل، هو نفسه ما أدى اليوم إلى إضعاف الموقف العربي في مواجهة المجازر الإسرائيلية. اكْتفَى الكثيرون بالشجب والعويل والتفت القليلون إلى بيت الداء: انهيار الثقة في الوطن، الوطن الأصغر والوطن الأكبر. انهيار الثقة الذي أدى إلى قبول مبدأ الهجرة باعتبارها وسيلة خلاص وقبول الهوان باعتباره قانون العرب الجديد. فمهما كان تاريخ الوطن حافلًا بالأمجاد والانتصارات ومهما بدت جذوره ضاربة في عمق الزمن، لا يمكن أن يحيا ويستمر بمجرد الغناء له أو البكاء عليه. في

المجازر الدائرة على أرض فلسطين، كلما سقط قتيل اشتعل في قلوب الناس الغضب، لكن الغضب مهما كان فاعلًا لا يكفي، لا يكفي. لكي نستعيد الثقة في الوطن يجب أن نبدأ من جديد، أن نتعلم من جديد الانتماء ليس فقط إلى الأرض، ولكن إلى الناس الذين يعمرونها، يجب أن نحاسب الجميع، ليس فقط الحكام ولكن المحكومين الذين يُذعنون لهم. يجب أن نؤمن أن «الآن» ليس مجرد امتداد للأمس، «الآن» صناعة علينا أن نعيد ابتكارها دائمًا. يتم هذا ولو جزئيًّا في سياق الهجرة؛ لأن الأمل يخايل القلوب ويمنحها الطاقة اللازمة لتغيير الحاضر، ولأن قدر الحرية الذي يتمتع به المهاجرون يزيل عن أعينهم بعض الغشاوة التي يخلفها الانتماء القومي، ولأن بعضهم يحلم بالعودة لهدم المعابد القديمة على رءوس كهنتها، والبعض الآخر يحلم بأن يساهم في نهضة بلده الأم من الخارج. على أهون تقدير، المهاجرون هنا يخرجون في مظاهرات احتجاج في حماية الشرطة لاستنكار العدوان والمطالبة بوقف المذابح. على أهون تقدير، يجمعون التبرعات ويرسلونها للمصابين وأُسرهم. على أهون تقدير، رغم كونهم أقلية، يكتبون في الصحف ويؤثرون على الرأي العام ويشكِّلون قوة ضاغطة على صُنَّاع القرار.

صوتي المتفائل هذا بُحَّ في المظاهرة ضد المذابح الإسرائيلية، أما صوتي الغاضب، صوتي الباكي، صوتي المستنكر، فلم أعد أستخدمه بقوة كما كنت أفعل في مصر. ترن أصوات الجماهير الرافضة للعدوان في العالم كله، أصوات ترفض أي تطرف «حماسي» أو صهيوني يروح ضحيته الأبرياء، أصوات غاضبة يحدوها الأمل: أوقفوا المجزرة، وأصوات تتساءل: ماذا بعد المجزرة؟ بعضها يقول: المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل مقاطعة دولية تفرضها الشعوب الحرة لا الحكومات الخانعة. وأخرى تقول: إعادة صياغة كلمة وطن، على المدى البعيد... بأشكال جديدة من التكتل ربما... من خارج الوطن ربما...

تحتاج الفكرة إلى مزيد من التفكير وإلى أمثلة من التاريخ حتى لو اختلف الحال في مصر. مثلًا هجرة الشيليين عقب أحداث ١١ سبتمبر ١٩٧٣ وتأسيس دولة ديكتاتورية بقيادة بينوشيه وبمساعدة الأمريكان. مات الكثيرون على أرض شيلي وهاجر الكثيرون إلى كندا وأوروبا... واعتبرت الهجرة بداية جديدة للشيليين خارج حدود دولتهم. الهجرة ليست خيانة للجذور، هي اعتراف بأن الجذور لو باتت متعفنة حق علينا اجتثاثها. الهجرة بداية لمن استطاع إليها سبيلًا وليست نهاية، لا للوطن كفكرة ولا للانتماء كنقيض للشتات. الهجرة ما لم يغذها حُلم التغيير والعودة، ما لم ترتبط بأحوال الناس في الداخل، باتت مشروعًا آخر من مشروعات التجذير القومي وأدت إلى نفس النهايات المعروفة سلفًا.

زارني أخيرًا صديقي رجل الأعمال الذي يتردد في الهجرة إلى كندا، زيارة يتعرف فيها على البلد ويختبر إمكانيات تكوين الثروة فيه. انبهر بما رآه وقارن بمصر وتذكر أحوال العرب والمسلمين فثقلت كِفَّة الهجرة كثيرًا. اعترف أن ما يربطه بالبلد هو فقط الأهل والأصدقاء، لكنه قال

وهو في طريق العودة إنه يتمنى أن تصبح كندا إسلامية في يوم من الأيام!!! لا ينقص كندا إلا أن تكون دولة إسلامية ليعتدل الميزان من وجهة نظر صديقي. لم يسأل نفسه من المسئول عن تردي الحال في مصر، ولم يفكر في أسباب تقدم كندا وتحضرها اللذين دفعاه لطلب الهجرة. شيء ما يفوق حدود علمه غاب عنه تمامًا. هذا الشيء الفارق اسمه العلمانية. يريد الحصول على امتيازاتها لكنه لا يريد الاعتراف بأنها أساس حضارة الشعوب الحديثة. يريد أن يحاكم النظام الذي أثبت نجاحه بمعايير النظام الذي أثبت فشله. يريد أن يوفر لنفسه ولأولاده أفضل الفرص في العمل والتعليم والصحة والتأمين الاجتماعي، أن يتمتع بكافة الحريات التي تنادي بها الديمقراطية بما في ذلك حرية العقيدة، لكنه ينكر بضراوة أن العلمانية والدولة المدنية هما السبب في هذه الامتيازات. يتعجب ويستغرب تقدم الغرب رغم أن الناس فيه «كفار»، ولا يفهم الفرق بين العلمانية والكفر، فكله عند المتشددين إلحاد! صديقي سيهاجر حتمًا إلى كندا، فقد ذهب تردده القديم أدراج الرياح. لكنني لست واثقة الآن من أنه سيتعامل مع البلد المضيف بما يتناسب مع كرم الضيافة، ولست واثقة من قدرة المضيف على احتمال الضيف لو صمَّم وعاند واستبد برأيه.

النوم مستحيل هذه الأيام. الأحلام تَتْرَى، تتكاثف، تختلط بهواجس السفر واحتمالات التأجيل. أصحو عدة مرات كل ليلة. متعبة وجفوني يثقلها النعاس. أقوم لأتكلم مع الكمبيوتر. أفتح صفحة الفيس بوك، لا أحد من أصحابي على الهواء. أعيد قراءة بعض الإيميلات القديمة، أزيل بعضها من صندوق البريد وأحتفظ ببعضها في فايل الأصدقاء. قصيدة جديدة من خالد السنديوني. صورة من إيمان حرم. قصة من منتصر القفاش. لن أشرب فنجان قهوة الآن وإلا عاندني النوم طويلًا. ولن أتحدث في التليفون مع مصر، فالوقت الآن في مصر صباح، والحديث الصباحي ليست فيه مُتعة. بعد انتهاء جلسة الإيميل أظل متسمرة زمنًا أمام الشاشة. أتحسس عيني، هل جاء النوم؟ جاء ولم يجئ. الأرق بعينه. نصف يقظة، نصف نعاس. في الرابعة صباحًا، ما زال برنامج أفلام جاك ليمون مستمرًّا: «صاحبة البيت الشهيرة» يتلوه «تحت شجرة اليام يام». لم أسمع بهذه الأفلام من قبل، تافهة ومسلية ولكن لكل شيء حدود إلا السأم. أشاهد الفيلم الأول كاملًا ونصف الثاني، ثم أغلق التلفزيون وأروح أُحملق في الظلام.

الأفكار جبل من الثلج الهش يستحيل تسلقه، بحر متلاطم يهدد بالغرق، غابة مترامية الأطراف يغلِّفها الضباب. أبعد الاستعارات السهلة والأفكار السوداء بهزة رأس وأستدعي صور أحبائي. أمي أوحشتني كثيرًا، أوحشني ملمس خدها القطيفة، أصدقائي أفتقدهم منذ أن بدأ موسم الشتاء، أقاربي لا أعرف أخبارهم منذ زمن أو أعرف القشور لمجرد الاطمئنان على الصحة. صور الناس في مصر، في الشوارع وعلى المقاهي، في الجامعة وفي وسط البلد، صور تتتابع في ذهني بلا رابط وبلا منطق. بمزيج من الحنين والغضب، حنين إلى زمن الطفولة السعيد وغضب مما آلت إليه أحوال الناس.

ولكن مالِي أنا ومال أحوال الناس؟ أنا هنا وهم هناك. بيننا بحر محيط وسوء تفاهم متجدِّد. كلما حاولت الاقتراب اتسعت الفجوة بيني وبين المعارف، بيني وبين الأصحاب، فما بالي بالناس الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني؟ زادت وحشتي وغربتي في الداخل وفي الخارج. غريبة هذه الأمور، أشعر أني بعيدة كأني خنت الأمانة، وقريبة كأني لم أغادر البلد قط. أفكر في أبي وفي صمته المحير. هل كان حكيمًا أم كان متشائمًا؟ من كان يفهمه في أسرتنا غير عمي؟ من كان يقدر حلمه وعمله؟ هل صمت هكذا فجأة أم نما صمته تدريجيًّا؟ هل كان يتكلم كثيرًا وأنا صغيرة ثم كف عن الكلام بعد ذلك؟ قال مفيش فايدة! وهل أنا مثله، سأكف عن الكلام فجأة؟ وعن الكتابة؟ هل سيحدث ذلك لأنني أعيش في زمن انحطاط؟ يحل الصمت على المفكرين والحالمين بالتغيير فيما يتوحش المستغلون وأنصاف المتعلمين والجهلاء والغوغاء؟ ومالِي أنا ومال الغوغاء؟ ثم ما هذه الكلمة القديمة أصلًا ولماذا خطرت ببالي؟

ما الحل؟ أستطيع أن أبقى في برج العاج الكندي وأكتب لنفسي أو لقلة من الناس، كلما تيسر الأمر. لا أستطيع أن أنزل من البرج لأكتب ما يرضي الأغلبية، ما يجتمع عليه الناس حتى لو كان خطأ. لا أستطيع أن أنخرط في القطيع لمجرد أن أنتمي. أستطيع أن أكتفي بالطلاب العرب والأجانب في صفوف الثقافة العربية. منهم سيأتي التغيير المنشود. البعض عنده الطاقة اللازمة ليهب ويثور والبعض الآخر يفكر في احتمال الصمت والانسحاب لمنطقة آمنة، بحثًا عن الرضا التام، بلا شرط أو قيد، سعيًا لموت مؤقت، لهدنة من الحياة القاتمة.

أتذكر كلمات نصر أبو زيد وهو يقول: «بقائي خارج مصر مريح للكثيرين». أقول لنفسي: إن العودة القصيرة مجرد مناوشة. البقاء خارج مصر أصبح مريحًا حتى للأهل وللأقارب. بنات أفكاري جنيات وأحلام تثير القلق. ولكن لا أحد ينصت حقًّا لما أقول، ثمة سوء تفاهم عميق، له جذور تاريخية، تجعل معظم الناس يصمون آذانهم عند أول كلمة أقولها. الكل مطمئن لما آمن به هو وأجداده وأجداد أجداده. لا مجال للشك، لا مجال للتفكير، لا مجال لمساءلة الماضي لأنه دائمًا أفضل من المستقبل. الكل ذاهب صوب الهاوية بقلب مطمئن. الهاوية التي سبق أن تلقفتنا وطحنت عظامنا: سياسات متوحشة وغيبيات أكثر توحشًا. ولكن ما قيمة أن أقول هذا الكلام للقليلين الذين يؤمنون بضرورة التغيير مثلي؟ ما قيمة أن أقوله لمن يشاركونني الحلم؟ ربما نتكاتف معًا لنصنع شيئًا؟ الأرجح أننا سنظل كلٌّ في عزلته. النتيجة المرعبة يأس من يحلمون بمستقبل أفضل، وفجور من يصادرون على هذا المستقبل بقسوة ولا مبالاة السائرين إلى الخلف وعيونهم تنظر إلى الأمام.

ربما أنت مثلي أيها القارئ، تسرح ببصرك وحلمك باتجاه الأفق، تؤمن بضرورة أن تتحقق العدالة للبعيد قبل القريب، أن يعم الخير جارك قبل أن يعم بيتك، تؤمن بأن السعادة لن تتحقق لك وحدك ما لم تتحقق للبشرية كلها، تنسى أنانيتك أحيانًا لكي تُنصت إلى أنانية الآخرين حولك، تطالب بالحرية أساسًا للحياة قبل أن تفرض الحدود عليها وعلى المطالبين بها، تحاول أن تكون رحيمًا بحق، كريمًا بحق، عطوفًا بحق، متسامحًا بحق، ترفض أن تكون بائع كلام وأناشيد ووعود وأحلام وشعارات، تعتبر نفسك ضد الانتماء إلى حزب أو جماعة أو أغلبية، تدعمك مهما كنت على خطأ وتطمئنك على قوتك وجبروتك. ربما كنت مثلي تؤمن بقيمة الإنسان مهما كان لونه وعقيدته وانتماؤه القومي، أو كنت كاتبًا أو مفكرًا بلا سند في الحياة سوى ثقافتك وفكرك الحر. أنت أيها القارئ ربما لا يصيبك الأرق، وربما لا تطبق عليك مشاعر العزلة مثلي، ربما كنت أكثر مرحًا وأقل مثالية، ربما كانت لديك خطة جهنمية للإطاحة بكل ما يقف عائقًا في طريق سعادتك وسعادة جيرانك وإخوانك في الإنسانية، ربما كنت على مرمى بصر مني لكني لا أراك، وربما لو أمعنت النظر قليلًا لرأيتك قريبًا، تنتظر.

كنت في بيت يشبه بيتنا الريفي القديم في «نوى» القليوبية. أجلس في غرفة بابها مفتوح لكني محبوسة فيها. أعرف أن شخصًا ما جاء بي إلى هنا وحبسني. أسمع صوت أنفاسه قادمًا من الغرفة المجاورة لكني لا أعرف مَن هو، لا شك رجل، لا شك صديق أو قريب، لا شك أني جئت بكامل إرادتي. لكني أريد أن أخرج الآن ولا أستطيع. أتسلَّل بعد بُرهة من باب البيت المفتوح. أراها فرصة للهرب. البيت يشكل نصف دائرة ويحيط به سور وممر من الأشجار. أركض بموازاة السور وأكتشف أني أعود إلى نفس النقطة التي بدأت الركض منها. لا أمل في الخروج.

تأتي صديقة لزيارتي، لا أعرف كيف دخلت ولا يهمني أن أعرف. سعيدة لرؤيتها، لكنها منهكة، تنام على فراشي وتقول: إننا سنتحدث غدًا. قادمة من مكان بعيد، ملابسها متربة قليلًا رغم ما عَهِدته فيها من أناقة. حقيبتها عند باب الغرفة، لا تنصت إليَّ وأنا أخبرها عن إحساسي بالسجن. ربما لا تصدقني. تنام بعمق دون أن تبدِّل ملابسها. في غرفة أخرى، الوقت قبيل المغرب، صديقة أخرى تُحدثني عن أبنائها. ترتب الغرفة وهي تتكلم، تطوي ملابس خرجت لتوها من المنشفة. تقول إني جاحدة، لا أدري كم أنا محظوظة، تشير إلى أن الأولاد يحبونني، تقصد أولادي فيما أظن، وزوجي أيضًا، وهذا يكفي. تقول إني ناجحة، ناجحة. فهمتِ؟

ترتيب الحلم لا أذكره، أعتقد أنه انتهى بمحاولة خروجي من البيت ثم عودتي إلى نفس نقطة البداية. بعد أن صحوت من النوم تعجَّبت؛ لأن شكل الممر الدائري الذي ركضت فيه كان مألوفًا وحميمًا. لم أكُن خائفة ولم أكن حقًّا أريد الهرب، كنت فقط أحاول. كان حلمًا عاديًّا، لم يكن كابوسًا. حلم ثقيل رغم ذلك؛ لأن صديقتي الأولى بدت لي أنانية والثانية بدت عاجزة عن الفَهم. والأهم من هذا وذاك أنني لم أكن أعرف تحديدًا ممّ أهرب. كان هذا واضحًا في ذهني في أثناء الحلم، وليس مجرد تفسير لما حدث فيه بعد انتهائه.

بعد الاستيقاظ أظل عادة في الفراش عدة دقائق، وأقوم متعكرة المزاج. لا أحب أن أكلم أحدًا ولا أن يكلمني أحد، أحب أن أُترك في حالي نصف ساعة بعدها أبدأ في التواصل مع الناس. هذه المرة بقيت في الفراش زمنًا. تتردد في رأسي أصوات من عالم آخر، أصوات مغنين ومغنيات وجُمل بعينها من أغنياتهم: مش عارفة مالِي، يمكن باحبك يمكن بااااحبك، مصحوبة بابتسامة ليلى مراد ولمعان عينيها وهي تقول «بااااحبك». مشوار طويل وانا فيه غريب، والليل يقرب والنهار روّاح، مصحوبة بصور من حفل بالأبيض والأسود لعبد الحليم. كان ده إيه ده حقة، حلم واللا علم... حبيبي، حبيبي، حبيبي يا رقّـ... ـة! صوت فؤاد المهندس ورقصته المضحكة بصحبة هند رستم يرسمان ابتسامة على شفتي. أقوم بخفة من الفراش وأشعر أن النهار لن يكون سيئًا إلى حدِّ التعاسة. بعد الدوش، إتس رينِنج أجين (إنها تمطر ثانية) أوه نو إتس رينِنج أجين، أصنع فنجان نيسكافيه

باللبن وأجلس أمام الكمبيوتر أطالع الإيميل وأقرأ الهوروسكوب. في أول النهار أقرأ حظك اليوم استعدادًا لنسيانه، أو أؤجل قراءته لنهاية اليوم لكي يتأكد لي كذب المنجمين ولو صدقوا.

الأحلام لا تتكرر كثيرًا، بل نادرًا. الحلم الوحيد المتكرر هو حلم السقوط في حفرة. ما عدا ذلك، إبداع دائم لذهن نشط، يبدو أنه لا يهدأ حتى في أثناء النوم. أنا في قاعة التدريس الكبيرة، تلك التي تتسع لمائتي طالب. اليوم امتحان. ضوء النيون والسبوت لايت الأصفر يهبط على القاعة من كل جانب. في الصباح، النور الأبيض والأصفر يغلِّف كل شيء، فالقاعة بلا نوافذ. أقف على المنصة، من خلفي شاشة العرض البيضاء المصنوعة من البلاستيك السميك، وأمامي كونسول يضم جهاز كمبيوتر وأجهزة عرض وأجهزة صوت وميكروفونًا. أحتاج إلى عرض مشهد من فيلم قبل بداية الامتحان، مطلوب من التلاميذ تحليل المشهد.

أشرح الامتحان مؤكدة أني شخصيًّا أكره الامتحانات وأطمئنهم أن الامتحان لن يكون صعبًا. مطلوب منهم التركيز فقط، لكنهم لا يركزون؛ البعض يتكلم بصوت عالٍ والبعض الآخر يأكل، والقليلون فقط ينصتون وينظرون إليَّ بأعين يثقلها النعاس. فجأة يبدأ برج من الكرتون أشبه بمئذنة جامع ابن طولون في النمو من أرض المنصة. ببطء وبحركة لولبية يعلو البرج حتى يصل قريبًا من سقف القاعة ثم يبدأ برج آخر في النتوء من المنصة ثم من المكتب ثم من الكونسول. لا يبقى سوى مستطيل صغير بين الأبراج البيضاء أنظر من خلاله إلى القاعة. الطلاب يطرحون أسئلة عن الامتحان رغم أني لست متأكدة أن أسئلتهم تخص الامتحان فعلًا، زمجَرتُهم تعلو مع ارتفاع الأبراج الواحد تلوَ الآخر. لا أستطيع الدفاع عن نفسي ضد غضب الطلاب، أفهم غضبهم وأشعر بالأسف لأني لا أستطيع إلغاء الامتحان. أوزِّع أوراق الامتحان وأعود لأحتمي بالأبراج. تهدأ الأصوات شيئًا فشيئًا. لا بد أنهم يحاولون فهم الأسئلة والإجابة عنها. أتذكر بعد خفوت الأصوات كلها أنَّ صيحةً غريبة هي التي بدأت موجة الغضب بين الطلاب. من فتحة المستطيل الصغيرة أُطل، وأرى كلوز أب لطالب ميت تخرج من فمه المفتوح ورقة امتحان مكورة.

طبعًا أصحو من هذا الحلم وفي رأسي هيئة أمم متحدة تتعارك لتغيير نظام التعليم في كندا وفي العالم. الأحلام لها هذا التأثير وربما تكون بالأساس مرآة لهواجس اليقظة الأكثر واقعية. حلمًا كان أو علمًا، هناك صورة بعينها تلحُّ وتعود وصور أخرى يطويها النسيان. صورة البيت وصورة قاعة الدرس، مثلًا، من ألبوم أحلامي المفضلة، والكتابة ما هي إلا اعتراف مضمر بأننا لا ننسى أحلامنا بسهولة.

يا نسيم الحب لما...

بالطبع تعرفون تلك القصيدة... هي في رأيي من أعذب ما كتب أحمد فؤاد نجم في الحب. يناجي فيها حبيبته وزوجته عزة التي يكاد اسمها اليوم يرتبط بفكرة قديمة وراسخة عن معنى الغرام، من أيام «كُثيِّر وعزَّة» وحتى قصيدة الحب المهداة إلى عزة بلبع زوجة نجم... الفكرة التي أعنيها تكاد تكون مستهلكة لكثرة ما كُتب فيها وعنها، في قصائد الرومانسيين وغيرهم، فكرة الربط بين الخاص والعام، بين حب الحبيبة وحب الوطن، بشكل شبه مكرر ونمطي. مع ذلك تظل قصيدة أحمد فؤاد نجم طازجة، خفيفة، حاضرة في الذاكرة، غنية بصورها ورهافتها وبنبرة التهكم التي تصاحب الجزء الثاني فيها، لحظة الاستيقاظ من حلم الغرام على واقع القهر والتفتيش والاعتقال. حماسي لقصيدة «بلدي وحبيبتي» يجعلني أحيانًا أعتبرها علامة في تاريخ شعر الحب المكتوب بالعامية المصرية، وأعتقد أني لست وحدي في هذا الاعتقاد...

تبدأ القصيدة هكذا: «الغرام في الدم سارح، والهوى طارح معزة. والحنين للقرب بارح، والنوى جارح يا عزة. يا ابتسامة فجر هلّت، بددت لِيلي الحزين. يا نَدَى الصبح اللي سأسأ، فوق خدودي الدبلانين. بلّ شوقهم، صحّى لون الورد فوقهم، كل خدّ وشم وردة. مين يدوقهم؟ غيرك انتي، ومين سواكِ؟ يا حياتي، يا ملاكي، يا نسيم الحب لما هَب هز القلب هزَّة، يا هوى الأحلام يا عزة».

قصيدة توجع القلب، خصوصًا عندما يصحو الشاعر من حلم الغرام على دستة من الثيران جاءوا لتفتيش البيت واعتقاله! إيقاعها الراقص يهز في قلبي وترًا حزينًا، يبعث مشاعر الحنين الدافئة، الدفينة... يُشعرني (رغمًا عني وعن صلابتي في مواجهة الغربة ومواجعها الكثيرة) بالشوق إلى مصر وناسها وطرق ومسالك الحب فيها، والكلمات التي يقولها الناس للتعبير عن تلك المشاعر البسيطة، اليومية، مشاعر الحب للبلد وللحبيبة... دون سفسطة، دون فذلكة، بعيدًا عن الكلمات الرنانة والاستنتاجات الذكية... بمجرد التلويح بحسٍّ رَهِيفٍ يشبه النسيم لتلك المشاعر الغامضة الخافتة، ولِما تثيره في النفس من أمل وترقُّب ونشوة.

يا نسيم الحب لما هَب هَز القلب هزَّة، وأي هزة! لا غنى للإنسان، أي إنسان، عن تلك الهزة! ولو من وقت إلى آخر وفي حدود الممكن. كنت أحدِّث نفسي بذلك وأنا أتذكر أن فرق التوقيت بين مصر وكندا يجعلنا نحتفل بشم النسيم في ميعادين مختلفين. في كندا احتفلنا بعيد الفصح منذ أكثر من أسبوع. ساعتها، لم تخطر كلمة «النسيم» على بالي. فقط عندما بدأ الناس يشيرون إلى اقتراب موعد العيد في مصر انتبهت؛ لأننا في هذا الوقت من السنة كُنا نحتفل بعيد النسيم، ومن فكرة إلى فكرة، خطرت ببالي قصيدة نجم وفوجئت بأني أكاد أحفظ كلمات مقطعها الأول عن ظهر قلب بالإضافة إلى اللازمة التي يقول فيها: «يا حياتي، يا ملاكي، يا نسيم الحب لما...».

عيد الفصح هنا يغلب عليه اللون الأصفر، تمامًا كما يغلب اللونان الأحمر والأخضر على

احتفالات الكريسماس، والفِضِّي والذهبي على ليلة رأس السنة، أو كما يكتسح اللون الأحمر المحلات والمطاعم والشوارع قُبَيل وفي أثناء عيد الحب أو الفالنتاين داي. لا أتذكر أن للأعياد ألوانًا خاصة في مصر، اللهم إلا غلبة اللون الترابي على الربيع المصري وبدايات موسم الخماسين المواكبة لشم النسيم. فضلًا عما تثيره جحافل البشر الخارجين للاحتفال من أتربة وضوضاء وروائح نفاذة؛ وما يصاحب ذلك كله من مظاهر البذخ والاسترخاء المتمثلة في الأكل الوفير ونوم القيلولة في الحدائق، والخروج في مراكب على النيل في اتجاه القناطر الخيرية أو في اتجاه حلوان.

نسيت في خِضم ذكرياتي القديمة عن شم النسيم في مصر أني لم أعد منذ أكثر من أحد عشر عامًا لزيارة القاهرة في شهر مارس أو بريل. دائمًا تقترن الإجازة بالعطلة الدراسية؛ إما في ديسمبر ورأس السنة، وإما في أشهر الصيف. لا بد أن شكل الاحتفال قد تغيَّر قليلًا، أو كثيرًا. لا بد أن الناس ينسون في معترك الحياة اليومية أن فرص الاستمتاع بالنسيم باتت ضئيلة، وأنهم في ذلك اليوم كما كان يفعل المصريون القدماء عليهم أن يقتنصوا الفرصة من قلب الطبيعة المتقلبة نفسها وأن يفرحوا ويهيصوا وينسوا أو يتناسوا شح النسيم وثقل الهواء الساخن، وأن يخرجوا للشوارع والحدائق والنيل، النيل بالذات، ليغتسلوا من الهم والغم وغير ذلك من مسببات الكآبة العتيدة.

يبهرني في مثل هذه الاحتفالات طابَعها التلقائي، العشوائي، الشعبي، وروح الانطلاق التي لا يحدُّها حدّ، والتي لا تخلو من تهكُّم على الحياة وعلى النظام وعلى طقس الاحتفال الجماعي نفسه. روح هي أشبه بانطلاق الحدس ورعونة المشاعر المفاجئة. تمامًا كما يبهرني صوت نجم ولغته الطازجة وهو يقول: «يا ندى الصبح اللي سأسأ، فوق خدودي الدبلانين..يا حياتي، يا ملاكي، يا نسيم الحب لما هب هز القلب هزة، يا هوى الأحلام يا عزة».

بارانويا

كندا ليست الجنة! فكرة أطارت النوم من عيني في الليلة السابقة على بداية العام الدراسي الجديد. غدًا تبدأ المحاضرات ولا أجد في نفسي الشجاعة الكافية للتدريس، لكني أعرف أني سأستيقظ رغم ذلك نشيطة ومستعدة بعد أن حايلت نفسي قبل النوم وبعد أن حايلتني نفسي في الأحلام...ولكن ما العمل الآن؟ الساعة الثالثة صباحًا وأنا أجتر للمرة الألف قصة قديمة تذكِّرني أن كندا ليست الجنة، وأن بعض حياتي فيها ظللها الشقاء.

قبل أن أحكي القصة، وها أنا ألف وأدور قبل أن أجاهر بما أريد قَوْله، أريد أن أقول: إن المهاجر منا عندما يعيش في «كيبك» كل هذه السنوات لا بد أن يُصاب بأحد أعراض البارانويا، هذا لو لم يكن مصابًا بها أصلًا... كنت في منتصف الثلاثينيات عندما شعَرت بأعراض البارانويا في صورتها البسيطة وهي تتسلل إلى أفكاري وتظهر من خلال تصرفاتي وأحكامي، ولا أستبعد أن تكون العدوى قد انتقلت إليَّ من عشرات المهاجرين مثلي ممن التقيت بهم في مونتريال وفي كيبك وحدثوني عن شعورهم بالاضطهاد والعزلة والحنين لوطنهم الأم.

تبدأ القصة بعد الانتهاء من الدكتوراه، وقبل تعييني كأستاذ الدراسات العربية بجامعة أوتاوا. قضيت سنة كاملة في لا مكان، لا منتمية علميًّا، ثقب هائل في الـ»سي في» يشير إلى الفترة من مايو ٢٠٠٥ إلى مايو ٢٠٠٦. حاولت في تلك السنة، وكما تقضي الأعراف أن «أتحرَّك».. فالحركة قانون صارم يتم تطبيقه على الجميع هنا، ومعناها أن أترك الجامعة التي انتميت إليها وأن أبحث عن عمل أو مشروع بحث أو أي نشاط أكاديمي في جامعة أخرى. بدأت في تلك الأثناء العمل بعقود تدريس مؤقتة في انتظار «الحركة» الكبرى التي ستؤدي إلى الثبات الشامل، الوظيفة! ولأني لم أكن أسعى جادة إلى الوظيفة، سعت هي إليَّ، ولكن تلك قصة أخرى.

في تلك السنة، تقدمت بمشروع بحث موضوعه المقارنة بين المهرجانات السينمائية الكندية (خاصة مهرجان مونتريال ومهرجان تورونتو الدوليين) مع افتراض تأثرها في اختيار الأفلام وفي سياسات التحكيم بالثنائية الشهيرة التي تحكم العلاقة بالآخر وبقضية الأقليات الممثلين لهذا الآخر «المطلق» في كندا. تقوم الثنائية على فكرتين متقابلتين: من ناحية فكرة التلاقح والحوار الثقافي المعمول بها في فرنسا -وفي كيبك باعتبارها تابع أصيل لفرنسا- ومن ناحيةٍ أخرى فكرة التعدد الثقافي المعمول بها في أمريكا الشمالية وباقي مقاطعات كندا الأنجلو ساكسونية، والتي تقول بضرورة احتفاظ كل أقلية بهوية ثقافية أحادية تضعها في دائرة مغلقة ومحكمة.

المشروع، بمنطق الانتماء للبلد المضيف، يبدو مقنعًا إلى حدٍّ كبير، والأهم من ذلك أنه غير مسبوق في الدراسات السينمائية ذات المنهج الاجتماعي. كان من المفترض أن يشرف عليه أستاذ متخصص من قسم الإعلام من جامعة كيبك في مونتريال. دعاني الأستاذ بعد الموافقة على

الإشراف وفي انتظار حصولي على المنحة المطلوبة، للانضمام كباحثة لمجموعة بحث عنوانها «ساحة الرأي العام في عصر الترفيه» وركيزتها المنهجية كتابات الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو.

تفاءلت خيرًا وانضممت للمجموعة المكوَّنة من طلاب الماجستير والدكتوراه بالقسم، وكان المطلوب أن نلتقي مرتين شهريًّا على مدار العام الدراسي كله، على أن نشارك بأبحاثنا في مؤتمر علمي كبير في نهاية العام. منذ البداية، صدمني تعالِي الطلاب وثقتهم المُفرطة بأنفسهم إلى حدٍّ أنهم يتناقشون فيما بينهم باعتبارهم «فوكالديين» أي منتسبين تابعين لفوكو أو متخصصين في فلسفته. مع الوقت اكتشفت استخدامهم الخاص جدًّا لكتابات هذا الفيلسوف، والمعروف عنه نقده الشديد لفكرة السلطة في أعمال من أهمها كتاب «المراقبة والعقاب»، الذي يُحلل ويؤرخ وينتقد سلطة مراقبة المرضى العقليين في المستشفيات وعقاب المجرمين في السجون.

فيلسوف من أشهر المنتقدين للفكر السُّلطوي فإذا ببعض كتاباته عن مناهج بناء الذات تتحول لأداة سلطة في يد «أدعياء الفوكالدية» من الطلاب والباحثين. ينتقدون السلطة وهدفهم هو تأكيد سلطة الذات القومية والسيطرة على الرأي العام بمقاومة الخطاب السائد...باختصار، تجديد إنتاج السلطة عن طريق إحلال سُلطة بديلة للسلطات القائمة أو المهيمنة.

بالطبع كانت لديَّ تحفُّظات على هذا الفهم الملتوي لفوكو وعلى كلام البعض عن ضرورة الحفاظ على الهوية الكيبكية (وليتني أعرف ما هي) في مواجهة غزو الأقليات... وبالطبع وُجِهَت تعليقاتي بقَدْر من التسفيه والتعالِي، أو بالتجاهل التام والتهميش. بدا وكأني لست «فوكالدية» بما يكفي! أو أن ما قرأته من فوكو لا يكفي لانتسابي للجماعة، التي بدت بتعبير المفكر الفرنسي ميشيل مافيزولي، مثل قبيلة حداثية. شعرت بالبارانويا تنمو بداخلي وكأنها بذرة تنتظر من يرعاها وينميها، ولا أعرف إن كانوا هم أيضًا مصابين بها أم أني التقطتها من الهواء المتعفِّن الذي حل فجأة على أفكارنا.

فكرت أنهم يعاملونني هكذا لأني امرأة، أو لأني عربية، أو لأني مهاجرة، نظرت لنفسي بأعينهم وزاد الطين بِلَّة كونهم بدوا ككتلة واحدة معادية، قبيلة في مواجهة الغريب. لو تحدَّثت عرَضًا عن الأيديولوجيا، يسألني أحدهم: وما هو تعريفك لكلمة «أيديولوجيا»؟ ولو وردت كلمة ثقافة في تعليق أو سؤال كنت صاحبته، يستوقفني آخر سائلًا : وما هي «الثقافة»؟ كان حديث البعض يقتصر أحيانًا على سلسلة من التعريفات المحفوظة المأخوذة رأسًا من كتاب يذكره المتحدث ويذكر تاريخ نشره ويقارنه بتعريف آخر من كتاب آخر لنفس المؤلف يناقض فيه المؤلف نفسه، فيما يفرح المتحدث لأنه أثبت بما لا يقبل الشك قدرته على حفظ الأسماء وكشف المتناقضات.

بدت التعريفات المتداولة وكأنها مسجلة في قاموس، ينتقي منها الواحد تعريفًا يسعده ويركن إليه وهو يشير بثقة لصفحة الكتاب المفتوح: ث - ثقافة. لكني لم أكن مستعدة لتعريف المفاهيم الكُبرى

ولا لحفظها، أولًا: لأني أنسى كثيرًا. وثانيًا: لأني أحتاج لوقت للتفكير قبل الحديث. وكلما تلعثَمتُ في ذِكر تعريف أو مرجع بدوت كأني طالبة طموح وبلا مؤهلات ضلت طريقها إلى قاعات البحث العلمي. باختصار، كان الموقف كارثيًّا بكل المقاييس!

هابرماس، المفكر الألماني الشهير، كان حائطًا آخر يقف بيني وبين أدعياء الفوكالدية. هابرماس لديه تعريف مثير للرأي العام لم أقتنع بوجاهته، فهو يعتبر أن سلطة الطبقة البرجوازية وحدها كفيلة بخلق رأي عام قوي، يرى أن الشعب الجاهل يجب إقصاؤه من ساحة الرأي ويستند في ذلك إلى تاريخ نشأة الرأي العام في أوروبا الحديثة من خلال حلقات القراءة والنوادي الأدبية وما شابهها. قضيت شهرًا أو يزيد في تفنيد هذا الرأي وقدمت ورقة بحثٍ عن فكرة الحرية عند هابرماس وقيمتها من خلال نقد المفكر الماركسي ماركوز لمبدأ الحرية وتأكيده على كونها (في السياق الألماني) ترجع لجذور دينية بروتستانتية لم يفلت من أسرها ماركس نفسه. وخَلُصت إلى أن ساحة الرأي العام عند هابرماس ليست مكانًا لممارسة الحرية بقدر ما هي موقعًا لتحجيمها والسيطرة عليها وفرض الشروط والقيود على مسارها من منطلق ليبرالي طبقي موالٍ لسلطة الدولة والدين.

بدا بما لا يقبَلُ الشك أنَّني لن أنتمي يومًا لتلك الجماعة الكيبكية الفوكالدية الهابرماسية المنعقدة في جامعة أوكام. ظننت لوهلة أن الانتماء الفكري أو عدمه لا يُفسد للود قضية، لكني كنت مخطئة. فالودُّ كان مشكوكًا فيه من البداية، والثقة تم سحبها مع كل كلمة نقدٍ أو سؤال يشتبه فيه المراجعة من جانبي، واعتُبرت في النهاية شخصًا يقول ما لا يعرف، مخرفًا على الأرجح، أو مدَّعي ثقافة على أهون تقدير.

أعراض البارانويا والانهزام تزداد يومًا بعد يوم. يوم الجمعة، يوم لقائنا مرتين شهريًّا، أصبح يومًا ثقيلًا، يحتاج لاستعداد نفسي هائل لمواجهته. أذهب وأنا أجرجر أقدامي، وأعود بخُفَّيْ حُنَين، وكأني نسيت ما تعلمته، نسيته بلا رجعة. يومًا بعد يوم أزداد شعورًا بكوني امرأة، عربية، مهاجرة، مُدَّعية، متلعثمة، شكّاكة، تخونها اللغة رغم طلاقتها، كأني فقدت القدرة على الكلام أو كأني أحتاج للبداية من جديد، للتأقلم مع المعرفة من جديد. تمَّ الحكم سرًّا بأني دخيلة على فوكو وهابرماس وعلى الفكر الغربي برُمَّته، وكانت هزة الرأس المعتادة والابتسامة الصفراء تعلو الوجوه كلما أشرت لابن خلدون أو الفارابي. ابتسامة المُصاب بجنون العظمة وهو يقارن نفسه بمن يعتبرهم خارج نطاق الفكر، مجرد «حكماء» من عصور قديمة، واجهة لحضارة اندثرت ونسيها أصحاب الحضارة الحالية عن عَمدٍ.

أزداد صمتًا ويتضاءل وجودي أمام فصاحة هؤلاء العلماء الصِّغار، المتفرغون باستعلاء للقراءة والعلم، أساتذة المستقبل الجهابذة، الذين جمعوا بعبقرية فذَّة بين عمق الفكر وبين النضال من أجل ثقافة وهوية وحرية كيبك. كنت أشك أحيانًا، وكانوا يؤكدون دائمًا. كنت أتوه وكانوا يعرفون

طريقهم، كنت أرتبك وأتلعثم قبل أن تظهر من بين الأفكار الكثيرة السائدة فكرة مضيئة وجريئة ومخيفة، وكانوا ينظمون العالم كل جمعة ويستريحون كل سبت ولا يخافون أبدًا.

ذكرت ذات مرة دولوز باعتباره فيلسوف المكان، فيلسوفًا شرقيًّا قريبًا من أفكاري ومن ثقافة الأدب المقارن التي تفتَّح عليها ذهني في كندا، ثقافة نيتشة ودولوز ضد كانط وهيجل. سخر الأستاذ وسألني عما يعجبني في كتابات هذا الفيلسوف «الهراب» (مشيرًا لقانون الحركة عنده ولفكرة انتزاع الجذور). قال: إن مَن يقرأه يشعر أن كل شيء يفلت من بين يديه، يهرب، يتبخر. أجبته بسؤال بسيط يطرحه دولوز في شرح وتفصيل «الترحال» يقول: هل ثَمة وسيلة لتخليص الفكر من نموذج الدولة؟ يقصد سحبه بعيدًا عن كل بنية ثابتة، وعن كل نظام سُلطوي.

يقول: إن الفكر يستعصي على الثبات، يرتحل ويقاوم ويتحول لماكينة حرب، لا يخضع لدولة ولا لأرض ولا لجماعة. الفكر قبلي، صحراوي، متحرك، محلِّق، ضد قانون الجاذبية، خاصة جاذبية الدولة. هز البعض أكتافهم وقال طالب فرنسي متعجرف: إني عاجزة عن تقديم أي نقدٍ حقيقي لدولوز. لم أفهم، آنذاك، أنّ الطالبَ كان يسعى للانتماء.

طالبة عربية، وحيدة، خجول، كانت تُنصِت باهتمام لما أقول وكان تشجيعها الدائم لي يزيدني توترًا، يضعني بما لا يقبل الشك في نفس المعسكر معها، معسكر المرأة العربية التي لم ترقَ بعدُ لمصافِّ الباحثين الدوليين. كنت أشعر بالامتنان لها والحَنَق عليها في الوقت نفسه، ولم يكن هناك مفرٌّ من أن نتصادق في حدودٍ، وبقدر من الحذر من جانبها، فقد كانت تعي أيضًا أهمية انتمائها للجماعة.

رُفِض مشروع المهرجانات السينمائية الذي تقدمت به لجهات تمويل البحث العلمي في كندا. بلغني الخبر في مارس أثناء العام الدراسي. كنا نستعد في تلك الأثناء لتقديم أبحاثنا الفردية داخل المجموعة للمشاركة في المؤتمر العلمي الكبير المقام في مونتريال في مايو. قدمت بحثًا عن وظائف الرأي العام وأدواره المتعددة، مستخدمة نقد دولوز في كتابه «ما الفلسفة» لفكرة الرأي العام (ودولوز معروف عنه أنه مُعادٍ لمدرسة هابرماس) وختَمتُه بالإشارة لفكرة الضيافة عند جاك دريدا والتي قد تصلح لأن نتعامل بواسطتها مع ساحة الرأي باعتبارها مكانًا لاستقبال الضيف بلا شرطٍ، مكانًا مفتوحًا بحقٍّ أمام «الرأي»، أمام «الفكر الرَّحال» المدعوم بالحجة.

بالطبع لم ينشر البحث ضمن أبحاث الجماعة. قيل لي ضمن حيثيات الرفض: إن البحث يتصِف بالجدَل، بمعنى أنه لا يستند إلى فِكْر رصِين. وكانت ثمة شماتة مستترة في خطاب الرفض، تشبه شماتة الموظف الذي يتوهم أنه ضيع على صاحب الفكر فرصة الاستقرار في حضن المؤسسة.

هناك -بما لا يقبل الشك- قَدرٌ من جنون العظمة في موقف الجماعة، قدر من الشعور بالامتلاء والزهو لكونها «ثورية» بمعنًى من المعاني، تنتمي لجامعة ذات سمعة تقدمية، أُنشئت ضمن حركة الطلاب الثورية في العالم وتأكد دورها مع قيام الثورة الهادئة في كيبك في الستينيات. ما أريد قوله

هو أن إحساس الأقلية الكيبكية بالاضطهاد في مقابل الأكثرية الأنجلوساكسونية يوازيه إحساس نفس هذه الأقلية بالعظمة في مقابل الأقليات الأخرى من المهاجرين أمثالي. بارانويا مضاعفة إذن، مُتحققة بشكل غريب، بشِقَّيها، ولأسباب تاريخية يطول شرحها.

وَيَّا الطيور!

لم تنته بعد تجربة الغربة، أنا التي انتهيت منها ومن اجترارها، في الكتابة وفي مكتب الاستشاري النفسي لشئون المهاجرين. لم تعد العودة ممكنة، ليس الآن، ليس ثمة استقرار، والمكان لم يَعُد له نفس التأثير السلبي الذي دأبت أحد عشر عامًا على تأكيده. مع بداية العام الثاني عشر على الهجرة، سأكفُّ عن الكلام عنها، سأحيا بفكرة أنها ترحال، مثل ترحال البدو... أو البط! صلاح جاهين يقول في رباعيته الفريدة: «البط شال عدى الجبال والبحور/ ياما نفسي اهجّ... أحجّ وَيَّا الطيور/ أوصيك يا ربي لما اموت... والنبي/ ما تودينيش الجنة... للجنّة سور/ عجبي!».

الغربة باتت اغترابًا واستغرابًا، وكلاهما له وَجاهته. الفرق بينها وبين الاغتراب يكمن في صيغة القرار الذاتي الذي تتضمنه لفظة «اغتراب»، غربة الإنسان بقرار ذاتي ألطف بكثير من غربة الإنسان بقرار مجهول الهوية، مفروض، خارجي. الغربة نبع متجدد من الدهشة أيضًا، حتى في الحزن، حتى في اليأس، حتى في لحظات السعادة الخاطفة، تجد الدهشة طريقها إلى قلبي، عندما أتأمل ما يحدث لي وللعالم من حولي فأقول: يا أله! هذا الشعور لم يُخالجني من قبل... يصبح اصطياد المشاعر الجديدة هواية، والاستغراب مادة للتأمل والفُرْجة وإزجاء الوقت. تمامًا مثل قراءة خبر مثير في جرنال بايت، أو مشاهدة فيلم جيد لمخرج متوسط القيمة. الاستغراب يُعيد الثقة في المستقبل. والاغتراب يعيد الثقة في سيطرتي على مُقدَّرات الأمور. أما الغربة فهَمٌّ وحسرة وطول انتظار.

أنزع دائمًا للرحيل. أنا صاحبة قرار الذهاب إلى كندا. وأنا مَن ندم وضيَّع سنوات في الندم على الهجرة حين باتت حقيقة، تنمو وتترعرع على هامش رغبتي في إرضاء أسرتي الصغيرة. بعد سنوات الدراسة، قال الأولاد: نبقى هنا، أصبحنا كنديين. وقال زوجي: نبقى هنا، هذا أفضل. والأصحاب في مصر، في السنوات الأخيرة بالذات، قالوا: نفتقدك ولكن ابقي هناك. حتى بدا أن هنا وهناك ثنائية لا فكاك منها. المزعج حقًّا في هذه الأوامر والنصائح ليس المكان في حد ذاته، هنا أو هناك، إنما فعل الأمر «ابقي»... وأنا لا قُدرة لي على «البقاء»... حال واحدة تُميتُني، أحوال كثيرة تحييني... أحتاج أن أهجّ من آنٍ إلى آخر، في مواسم الهجرة وفي غيرها. استغرقت سنوات لأدرك ذلك. المشكلة ليست هنا وهناك، المشكلة فيما يربِطُني بالمكان، يُقيِّد انطلاقي، يحبسني في قفصٍ. سَمِّهِ الهجرة أو سَمِّهِ الاستقرار.

على مدار أحد عشر عامًا: الصيف رغم الحر تنفرد به القاهرة، حي مصر الجديدة، رحلات قصيرة للشاطئ، جلسات رائقة مع الأصحاب. الشتاء رغم الصَّقيع تنفرد به كندا، حي أوتاوا الجنوبي بين النهر وبين القنال، التدريس بالجامعة، بهجة التعامل مع طلاب في العشرين أو دونها. لم أضبط إيقاع المواسم بعدُ كي يكتملَ المشهد، مشهد الكاتبة المهاجرة. ما زلت أرحل عكس

المواسم... عكس هجرة الطيور. يومًا ما، سيَنضبِطُ الإيقاع. أقول بمزيج من الاطمئنان والريبة.

الأسوار ضاربة عالية حيثما ولَّيتُ وجهي، حتى في المكان الذي كنت أظنه جنة، وكأن الظنون أيضًا تتغير مع المواسم. ليس ثَمةَ جنة ونار في مسألة الهجرة إذن. هناك فقط تلك الأسوار. كلما علا واحد حمَلتُ مِعولِي وفتحت طاقة، نافذة، فجوة، شرخًا، طريقًا، أطيرُ وأعود من نفس الفتحة، فالعبور حركة دائمة التجدُّد. هنا لم تعد الجنة جنة. وهناك لم يعد الجحيم جحيمًا. المسألة مسألة وقت، وقت تندلع فيه النِّيران بين أغصان الأشجار الوارفة، وآخر تنزل فيه أنهار العسل على الجمرات تخمدها إلى حين. أوصيك يا أله، وحسبك النبي، لو مت لا تُدخلني الجنة... للجنّة سور. أو على الأقل، يا رب، أعطني مِعولًا أو امنحني أجنحةً... واسمح لي بالمرور دومًا، من هنا إلى هناك.

قال صاحبي: أيَّة أسوار؟ أنت تهذين وتبالغين وتنساقين وراء الكلمات. لا توجد أسوار. انظُري، حتى الحدائق حول البيوت بلا سِياجٍ، والبساتين والمروج على مدد الشوف. والأبواب فتحت لك على مصراعيها، تعليم وعمل وباسبور (ياه! نسيت الباسبور!) تُحسدِين عليه، وأولاد زي الورد والفل والياسمين يُحبونكِ كأنك نصف إله. ونجاح، وصعود، وغربة. أقول: واغتراب، يُصحِّح لِي. واستغراب، هذه كلماتك. أحبه هذا الصديق وأكرهه أيضًا لنفس الأسباب! كتب كتابًا عن الميلودراما في السينما، يعرف كيف يكشف زيف المشاعر، خصوصًا حين يراني منساقة على طريق الندم والترحُّم على أيام زمان، طريق اللي يروح ما يرجعش. هي الجنة إذن، أقول متهكمة: ليس ثمةَ جنة ونار على الأرض. يردُّ مستاءً: لن تجدي الجنة هنا ولن تجديها هناك. أُصدقه لأني أريد أن أُصدقه. هو صديقي وحبيبي ورفيق عمري، فمن لي أصدق سواه، ومن غيره يعرفني ويحمل عني مِعْولِي كلما عَنّ لي العبور من هنا إلى هناك؟

بعد أيام، يبدأ العام الثاني عشر على الهجرة. يبدأ وقد بدأت أجنحتي تشتد وتقوى.

طرق

غادرت البيت قُبيل الفجر. الساعة لم تتعدَّ السادسة صباحًا والظلام يلفُّ المدينة. الطرق الداخلية بعضها ضيق وبعضها واسع، بعضها يخلو تمامًا من السيارات وبعضها تصطف فيه السيارات على الجانبين وتصنع ذيلًا طويلًا موازيًا للرصيف. أحيانًا تكون الطرق طويلة بشكل مريب. بعضها يتجاوز عشرين كيلومترًا. أشعر بالملل وأنا أخترق الشوارع الطويلة لفرط طولها واستقامتها، وأشعر بالإثارة حين تقابلني بعض التعرجات هنا وهناك. عند كل تقاطع توجد إشارة مرور أو علامة توقّف. الإشارة حمراء عند مدخل شارعنا وأنا وحدي وسيارتي أيضًا وحيدة، لكني أنتظر. الإشارة خضراء، الآن يمكننا أن نعبر بسلام رغم أن المسألة لا تخص السلامة ولكن تخص القانون.

علامات التوقف تجبرنا على التوقف التام لمدة ثوانٍ لكنها ليست صارمة مثل الإشارة الحمراء. عبور الإشارة وهي حمراء قد يتسبب في سحب الرخصة وغرامة خمسمائة دولار. عبور علامة التوقُّف بلا توقُّف كامل مائة وخمسون دولارًا فقط. والإنسان منّا مهما كان حريصًا لا يعرف من أين يخرج الشرطي. ذات مرة، رأيت شرطيًّا في الساعة الرابعة صباحًا يمر في شارعنا ويعطي مخالفات للسيارات النائمة بجوار الرصيف. يبدو لسبب غير معلوم أن الصف في ذلك اليوم كان ضد قانون البلدية. عرفنا فيما بعد أن السيارات ليس من حقها الوقوف في الشارع في أيام الثلج الشديد. أين تذهب السيارات إذن في مثل هذا اليوم؟ لا أحد يعرف! في المناطق السكنية هناك لكل بيت جراج خاص، أما في وسط المدينة فيجب على كل مواطن أن يضع سيارته في جراج عمومي.

المدينة خاوية، أشباح سيارات بعيدة تمر على الكوبري الذي تظهر أنواره في الأفق. عندما أعبر بسيارتي تحت الكوبري يخيل إليَّ أن اللوري المسرع فوقي سيصطدم بي، وبدلًا من أن أسرع لأتفاداه أُبطئ وأنا أنظر إلى أعلى في انتظار السقوط. في انعكاس المرآة سيارة مسرعة تحتل الطريق بالكامل وتتخطاني بجنون. مثل لفح الهواء البارد عندما تكون له زَنَّة. على الطريق، ليس لنا سوى بعضنا أنا وسيارتي والأصوات. أشجار تهتز تحت البرد، هواء سارٍ، بيوت يغلفها رذاذ خفيف لا هو بخار ولا هو ضباب ولا هو مطر. لو مرت يد عملاقة على البيت لمسحت عنه ما يوازي دلوًا كاملًا من الماء. الحرارة المتوقعة فجر اليوم ثلاث درجات فقط تحت الصفر، شمس ساطعة في أثناء النهار وحرارة تتعدى الصفر بقليل قبيل الظهر.

على الطريق السريع. وحدي تمامًا منذ نحو عشر دقائق. الأفق بدرجات الأزرق الليلكي مستكين وناعس تجتازه لوهلة أشعة وردية تجعله يفيق من سُباته ويتثاءب في وجهي. أتثاءب بدوري وأخاف. سبق أن نمت لثوانٍ وأنا أقود السيارة. أفتح النافذة ليدخل الهواء المنعش ويطرد

النعاس ولو لحين. يبدو ذلك الخيط الوردي هناك مثل ابتسامة في سماء بلا وجه. أسرع نحوها دائمًا لكني لا أبلغها أبدًا. تتسع ابتسامة الفجر كلما انتشر نور الصباح، وتحل ضحكة ساطعة محل الابتسامة الواهنة. ألوان الفجر سريعة الذوبان، تتحلل كالبخار في الفضاء ما إن تُعلن الشمس عن نفسها. كأني في طريق صاعد أفقي، صاعد بلا صعود، لبلاب يسري على الأرض. كأن حوائط الكون قد تهدَّمت وأصبحت الأرض منبسطة إلى ما لا نهاية. سيارتي مأخوذة بحركة اللبلاب، تتبعه ويتبعها، يلتف حولها ويحملها على طريق رخو بلا مفاجآت.

أتوقف أمام مقهى عند أحد المخارج. فنجان قهوة أمريكية وسندوتش سلاطة دجاج ودو نت بالسكر والعسل. أتبادل كلمات قليلة مع البائعة، أنا في السيارة وهي خلف نافذة صغيرة. تمُدُّ يدها من خلال النافذة لتلقِّي النقود وتسليم المطلوب. هاف أجود داي! وأنت أيضًا. الطريق من جديد والنعاس يغادرني ببطء تحت تأثير القهوة، والصباح يعلن عن نفسه بصراحة تجعلني أندم على غياب ابتسامة الأفق الوردية.

عند مدخل المدينة ازدحام الذاهبين إلى العمل. أتخيل شكل السيارات من أعلى، طابور ممتد عشرات الكيلومترات، الحركة شبه معدومة تشبه حركة النمل وهو يتقدم في خط واحد نحو الجحر فيبدو كأنه ثابت في مكانه رغم أنه يتقدم إلى الأمام حثيثًا... كأن حركته المنتظمة نبض أو وَهَج. في عالم النمل لا يوجد سوى نمل عامل، وهذا الإيحاء الدائم بالحركة العشوائية حين يتفرق الأفراد... أو النبض الجماعي حين ينتظمون في طابور؛ طابور الصباح في المدرسة، طابور العمل، طابور النمل.

رحلتي ليست رحلة عمل؛ لذلك تجدني أجلس مستاءة في السيارة، حاقدة على كل هؤلاء الذاهبين إلى جهة معلومة، كل هؤلاء السعداء التعساء الذين يمتلئون همة ونشاطًا. أفسدوا عليّ استمتاعي بالفجر وبالسفر المبكر إلى مكان لست متأكدة من سبب رحيلي إليه. دخول المدينة في أول ساعات النهار «علقة»! ساعتان في الطريق وساعة عند مدخل المدينة. لكني أصل في النهاية. أصل إلى مكان يبدو أنه مناسب لكي أتوقف عنده وأشرب فنجانًا آخر من الإكسبرسو. مدينة جديدة أزورها للمرة الأولى لكنها تُشبه مدنًا أخرى زرتها في هذا البلد. ولأن هذه البلاد ليست بلادي فأنا غريبة هنا ولا يعنيني سوى قطع الطريق ذهابًا وعودة. هذه البلاد منطقة عبور ليس إلّا. يختلف الأمر قليلًا في القطار أو في الطائرة لأن الجهات محدودة بحدود المحطات والمطارات، والعبور ليست فيه متعة. أما في السيارة فعادة ما أكون مع نفسي ويخلو ذهني من الهموم. يمكنني لو شئت أن أقود السيارة أيامًا وأسابيع وأنا أُمنِّي نفسي بالتوهان إلى ما لا نهاية. ورغم أني في كل مرة أعود إلى نقطة البدء، إلى بيتي وشارعي ومدينتي، فإنني أغازل إمكانية الهرب كلما سافرت، ويبدو أن هذا الغزل في حدِّ ذاته هو ما يعينني دائمًا على العودة.

مي التلمساني

كاتبةٌ مصريةٌ كنديةٌ، وُلدَت في القاهرةِ عامَ ١٩٦٥ واستقرَّت في كندا منذ ١٩٩٨ حيث تعملُ حاليًّا أستاذًا للدراسات السينمائية بقسم الإعلام، جامعة أوتاوا.

صدر لها:

١٩٩٥: نحت متكرر (قصص)، دار شرقيات.

١٩٩٧: دنيا زاد (رواية)، دار شرقيات (صدرت أيضًا عن دار الآداب، ٢٠٠٢، وعن دار الشروق، ٢٠٢٢).

١٩٩٩: خيانات ذهنية (قصص)، الهئية العامة لقصور الثقافة.

٢٠٠٠: هليوبوليس (رواية)، دار شرقيات (صدرت أيضًا في مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣، وعن دار الشروق ٢٠٢٠).

٢٠٠٩: للجنة سور (يوميات)، دار شرقيات.

٢٠١٢: أكابيللا (رواية)، دار شرقيات (صدرت أيضًا عن دار الشروق، ٢٠٢٢).

٢٠١٦: ثلاث روايات: دنيا زاد، هليوبوليس، أكابيللا (مجلد)، دار شرقيات

٢٠١٦: عين سحرية (قصص)، الدار المصرية اللبنانية.

٢٠٢١: الكل يقول أحبك (رواية)، دار الشروق.

حازت «دنيا زاد» على جائزة عوليس الفرنسية للرواية الأولى في حوض البحر المتوسط، وعلى جائزة الدولة التشجيعية في مجال رواية السيرة الذاتية. تُرجِمت «دنيا زاد» إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والكتالونية والهولندية والفارسية، كما تُرجِمت روايتا «هليوبوليس» و«أكابيللا» وكتاب «للجنة سور» إلى اللغة الفرنسية. تحوَّلت «أكابيللا» لفيلمٍ سينمائيٍّ عامَ ٢٠١٦ بعنوان «تفاحة آدم» ورشحت «الكل يقول أحبك» للقائمة الطويلة للبوكر العربية عامَ ٢٠٢٣. حصَلَت مي التلمساني على وِسامِ الآداب والفنون من الحكومة الفرنسية برُتبةِ فارس عام ٢٠٢١.